صفحات جديدة من التاريخ الإسلامي

الحياة الاجتماعية في العراق
زمن البُوَيْهِيِّين

د. حورية عبده سلام
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

دار العالم العربي
DAR AL-AALAM AL-ARABI

٢ شارع امتداد رمسيس (١) ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفاكس: ٢٤٠٢٤٦١٢ ـ ٢٤٠٥١٤٩٨

e. mail: af _ madkour @ yahoo . com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ٢٠٠٩ م/ ١٤٣٠ هـ

رقم الإيداع: ١٩١٤٢ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى: ٠ ـ ٤٢ ـ ٦٢٧٦ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد رسول الله وخاتم النبيين وبعد. تتناول هذه الدراسة الحياة الاجتماعية فى العراق فى عصر «البويهيين» الذين حكموا العراق أكثر من قرن، وشاع فى عهدهم الجدل والمناظرات بين السُّنيين والشيعيين وسلبوا الخليفة العباسى كافة اختصاصاته؛ إذ لم يعترفوا بحق الخليفة العباسى السُّنى فى السيادة على العالم الإسلامى، واتخذوا لهم وزراء استعانوا بهم فى إدارة شئون البلاد.

وقد ظهر البويهيون على مسرح الأحداث بالعراق فى وقت كانت تعانى فيه الخلافة العباسية تسلط الأتراك واستئثارهم دونها بالسلطة حتى وصلوا إلى منصب أمير الأمراء، وسيطروا على الولايات التابعة للدولة واستقل بها بعضهم حتى أطلق على هذه الفترة من التاريخ العباسى اسم «عصر نفوذ الأتراك». ثم كان ذلك التحول الكبير بسيطرة بنى بويه على تقاليد الأمور فى العراق وأصبحوا أصحاب السُّلطة الفعلية بها.

وقد تناولتُ بالدراسة الأثر الاجتماعى لهذه الفترة من حكم البويهيين للعراق، حيث أخذ المجتمع طابعًا خاصًا جمع بين المتناقضات، وأوضحتُ العلاقة بين الأجناس المختلفة التى كان يتكون منها المجتمع العراقى من العرب والأتراك والديلم والأكراد، ونتائج سياسة بنى بويه وما أسفرت عنه من فتن طائفية، وما تركته سياسة تعصب بنى بويه للشيعة من أثر على هيكل المجتمع العراقى فى تلك الفترة. وقد قسمت الموضوع إلى ثلاثة أبواب: درست فى الباب الأول عناصر السكان المختلفة التى كان يتكون منها المجتمع العراقى.

وخصصتُ الباب الثانى لدراسة طبقات الشعب، فتناولتُ بالدراسة كل طبقة على حدة فبدأت بطبقة الخلفاء والأمراء ثم طبقة العلماء والتجار والصناع وأرباب الحرف والفلاحين.

ثم أوضحتُ دور المرأة فى المجتمع العراقى فى تلك الفترة، وتناولتُ بالشَّرح الأوضاع الاجتماعية للرقيق.

وفى الباب الثالث تحدثتُ عن مظاهر الحياة الاجتماعية فى قصور الخلفاء والأمراء، والموسيقى والغناء ومجالس الطرب وأنواع الملابس والطعام وطرق الاحتفال بالأعياد والمواسم ووسائل اللهو والترفيه، لنستكمل بذلك صورة للحياة الاجتماعية فى العراق خلال العصر البُويهى.

والله ولى التوفيق..

د. حورية عبده سلام

تمهيد

تألق نجم البويهيين[1] منذ أوائل القرن الرابع الهجرى، فتمكنوا من احتلال «أصفهان» و «الرى» واستمروا فى توسعهم نحو الغرب واستولى «معز الدولة البويهى» على إقليم الأهواز سنة 326هـ ، واستطاع أخوه «على بن بويه» اخضاع بلاد فارس، وأرسل إلى الخليفة العباسى «الراضى» يطلب منه الاعتراف بسلطته فى فارس.

كما دعا قواد بغداد «أحمد بن بويه» إلى المسير إلى بغداد سنة 334هـ ، فسار إليها فقابله الخليفة «المستكفى بالله» ولقبه «معز الدولة»[2].

---

(1) اختلف المؤرخون فى تحديد نسب البويهيين: فمنهم من يرى أنهم من الفرس، ومنهم من يرى أنهم من سكان بلاد الديلم، وهى الأرض التى تقع فى الجنوب الغربى من بحر قزوين ـ وهى المنطقة التى فتحت منذ عهد الخليفة «عمر بن الخطاب». ويصف المقدسى أرض الديلم بقوله إنها: "إقليم كبير يشتمل على خمس كور: أولها من قبل خراسان قومسى ثم جرجان ثم طبرستان ثم يلمان ثم الخزر، وتقع بحيرتهم وسط الكور الأربعة الأخيرة ولا تتصل بقومس لأنها تقع على رءوس الجبال بين الرى وخراسان وتفصل طبرستان بينها وبين البحيرة، وعرف القوم الذين سكنوا هذه البلاد «بالديلم» وقد استقروا على بحر قزوين فيما بين طبرستان والجبال وجيلان وبحر الخزر. المقدسى: أحسن التقاسيم ص353. المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ص24، أبو اسحاق: المنتزع من التاجى فى أخبار الدولة الديلمية. مخطوط ورقة 3. الإصطخرى: المسالك والممالك ص121.

(2) المسعودى: مروج الذهب جـ2 ص 210. ابن الجوزى: المنتظم جـ3 ص 338. ابن الطقطقى: الفخرى ص 284. الصولى: الأوراق ص 43. ابن الأثير: الكامل جـ7 ص 455.

وغدا بنو بويه أصحاب السلطة الفعلية فى بغداد، بل فكروا فى إزالة الخلافة العباسية إلا أن «معز الدولة» تراجع عن تنفيذ ذلك، فقد رأى من المصلحة الإبقاء على خلافة العباسيين السُّنية فى ظل خلفاء ضعاف يستطيع السيطرة عليهم، بدلا من إقامة خلافة شيعية يتولاها أحد العلويين. وقد ظلوا على صلتهم العقائدية بالفاطميين وسمحوا لهم بنشر مذهبهم بالعراق وتبادلوا الرسائل الودية مع «العزيز بالله الفاطمى»[1]، وقربوا إليهم أتباع المذهب الفاطمى ليستعينوا بهم فى تحقيق سياستهم فى العراق[2]. فقد كان بنو بويه من غلاة الشيعة. إلا أن سياسة البويهيين هذه تجاه الفاطميين تبدلت حينما خشى البويهيون قوة الخلافة الفاطمية على نفوذهم[3] فى العراق. حيث نجحوا فى إقامة إمارة وراثية منذ أن قام «معز الدولة» بتعيين ابنه «أبى منصور بختيار» أميرًا للأمراء سنة 344هـ[4] . وانحدرت بذلك الخلافة العباسية إلى هوة سحيقة[5].

والواقع أن هيبة الخلافة العباسية قد أضاعها من قبل استبداد قادة الأتراك[6] بالسلطة حتى كانوا يولون الخلافة من كَسبَ رضاهم وأمنوا جانبه، وختم الأتراك تلك الفترة من التسلط بخلع الخليفة «المتقى بالله» سنة 333هـ وعينوا «المستكفى بالله» بدلا منه.

وقد كانت هناك أسباب عدة تفسر حقيقة ما وصل إليه حال الخلافة العباسية من ضعف، من بينها تلك الفجوة الكبيرة التى كانت تفصل النظام العباسى وعلى رأسه

---

(1) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص 124 ، 125.

(2) Noeldoke. Sketches From Eastern History P.88

(3) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص 36.

(4) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ3 ص 312، ابن مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص 158.
Arnold. The Caliphate P.61.

(5) المسعودى: مروج الذهب جـ3 ص 211.

(6) يذكر السيوطى: تاريخ الخلفاء ص 358 كيف كان بعض الشعراء يسخر مما وصل إليه حال الخلافة من الضعف فقيل عن خلافة المستعين:

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قال له كما تقول الببغا

الخليفة عن السواد الأعظم من الشعب، ولإخفاق العباسيين فى تحقيق ما كانوا يدعون إليه من شعارات على رأسها الدعوة إلى الإصلاح فسرعان ما زعزع العباسيون ثقة الناس فى الدولة بتنكرهم للأهداف التى نادوا بها ووعدوا بتحقيقها مع تزايد نمو الطبقة المستغلة التى أشركوها فى الحكم، والتى تتكون من «الفرس»[1] تارة ومن «الأتراك» تارة أخرى. وقد أشار إلى ذلك «هلال الصابى» فى كتابه الوزراء بقوله: «إن كثيرًا من الأمور كانت تجرى فى أروقة دار الخلافة بدون علم الكتاب والعامة وهذا أمر طالما أوهم العامة وشغلهم عما يجرى فى الدولة[2]».

إلا أن العامة كانوا يتعاطفون فى بعض الأوقات مع بعض الخلفاء إذا ما شعروا بصدق نيتهم كموقفهم من الخليفة «المهتدى بالله» فى صراعه مع الأتراك[3].

وإذا كان الأتراك قد استبدوا بالسلطة دون الخلفاء العباسيين فإن البويهيين قضوا على نفوذ الخلفاء العباسيين؛ إذ كانوا لا يعترفون بحق العباسيين السُّنيين فى السيادة على العالم الإسلامى وإنما اعتبروهم مغتصبين للخلافة من أصحابها العلويين[4].

وقد ترك الحكم البويهى آثاره الواضحة على المجتمع فى العراق فى ذلك الوقت وسنحاول فى هذه الدراسة إلقاء الضوء على ما كانت عليه الحياة الاجتماعية فى العراق فى ذلك العصر.

---

(1) ابن الأثير: الكامل ص 198 ، 199.

(2) هلال الصابى: الوزراء ص 316.

(3) أعد بعض الناس رقاعا يستحثون فيها العامة للالتفاف حول الخليفة كتب عليها: "يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم أن ينصره الله على عدوه يكفيه مئونة ظالمه ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه فإن الأتراك أجبروه بأن يخلع نفسه." الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ 12 ص 795.

(4) كان البويهيون شيعة على مبادئ الزيدية التى دخلت بلاد الديلم على يد حسن بن على الزيدى. ابن الأثير: الكامل جـ8 ص149.

الباب الأول

عناصر السكان

عناصر السكان

كان المجتمع العراقى فى أواخر العصر العباسى يتكون من عدة عناصر[1] هى: العرب والفرس والديلم والأتراك والأكراد الذين علا نجمهم منذ عهد الخليفة «الواثق» حين أسند إليهم مناصب الدولة المهمة واستبدوا بالسلطة حتى دخول البويهيين، وأهمل العرب والفرس وغدا الأتراك خطرًا يهدد كيان الخلافة نفسها، وقد أدرك بعض الخلفاء خطرهم فاستعانوا بالمغاربة والأكراد والقرامطة كجند مرتزقة وذلك منذ عهد الخليفة «الراضى» سنة 322 ـ 329هـ، غير أن هذه العناصر جميعًا كانت مصدر قلق وخطر حيث كانت تنضم إلى الأمراء تارة وإلى الخلافة تارة أخرى. وكان لاستبداد الأتراك بالسلطة فى العراق ما مهد لدخول البويهيين.

وسنتكلم عن أهم تلك العناصر، التى كان يتكون منها المجتمع العراقى، فى العصر البويهى.

العرب

كانوا يسكنون فى المدن أو يعيشون فى الريف وقد استقروا على هيئة قبائل وقد استمرت الخصومات القبلية بينهم فى بعض المدن كالبصرة حتى إن «معز الدولة البويهى»

---

(1) يذكر ابن الجوزى أن عامة بغداد كانوا يؤلفون خليطًا من العرب والفرس والترك والنبط والأرمن والجركس والأكراد والبربر. المنتظم جـ1 ص228.

أصلح سنة 366هـ بين قبيلتى ربيعة ومضر بعد أن دامت الخصومة بينهما مائة وعشرين سنة[1].

ومن المعروف أن العرب كعنصر مؤثر فى الأحداث السياسية قد اختفى منذ عصر الخليفة الواثق وما تبع ذلك من تفكك القبائل العربية واختلاط أنسابها[2].

إلا أنه ظلت فى المجتمع العراقى طائفة من العرب احتفظت بوضعها المتميز وهى طائفة الأشراف، التى تعتز بشرف نسبها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم العلويون[3] والعباسيون، فالأولون يعتزون بالانتساب إلى أولاد «على بن أبى طالب» من

---

(1) أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة جـ1 ص74. منذ قامت الدولة العباسية ساد العنصر الفارسى الذى اعتمد عليه الخلفاء العباسيون ومن ثم قامت المنافسة بين العرب والفرس حتى جاء «المعتصم» فاعتمد على العنصر التركى واتخذهم حرسا له وأسند إليهم مناصب الدولة وأسقط العطاء عن العرب، ومن ناحية أخرى اشتعلت نيران العصبية بين قبائل مضر وربيعة. الطبرى تاريخ الرسل جـ9 ص 281 ، 282.

(2) ابن الأثير جـ6 ص104 ، 105 ويذكر أنه بعد وفاة الخليفة المعتصم ثارت العرب القيسية بدمشق فعهد الخليفة الواثق إلى «رجاء بن أيوب الحضارى» بإخماد ثورتهم. الكامل فى التاريخ جـ6 ص179. ومن المعروف أنه بعد نجاح الثورة العباسية انتقل الحكم إلى العباسيين على أيدى الفرس، حيث مال العباسيون إلى إيثار الفرس بالمناصب المدنية والعسكرية وتقلص نفوذ العرب تدريجيا ويعتبر النزاع الذى قام بين «الأمين» و«المأمون» فى حقيقته صراعًا حزبيًّا بين العلويين والعباسيين من ناحية وبين العرب والفرس من ناحية أخرى. الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ9 ص127، المسعودى: مروج الذهب جـ2 ص241 k 242،
Palmer. Haraun AL _ Raschid P. 37.

(3) بايع بنو هاشم من العلويين والعباسيين «محمد بن عبد الله بن الحسين بن على بن أبى طالب» المعروف باسم محمد ذو النفس الزكية فى مكة فى أواخر عهد الأمويين إلا أن العباسيين ما لبثوا أن نقضوا هذه البيعة ونقلوا الحكم إليهم، ومن ثم نقم العلويون على العباسيين واعتبروهم مغتصبين للخلافة واستمر النزاع بينهما حتى تمكنوا من تحقيق ما يسعون إليه من إقامة خلافة علوية فى بلاد المغرب الأقصى، ثم واصلوا نضالهم ضد العباسيين منتهزين فرصة ما أصابهم من ضعف نتيجة استئثار الأتراك دونهم بالسلطة. المسعودى: مروج الذهب جـ3 ص350. الجهشيارى: كتاب الوزراء والكتاب، ص312. الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ2 ص223 ، 224. ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص161.

«فاطمة»، والآخرون ينتسبون إلى «العباس» عم النبى (e)، ولكثرتهم أصبحوا يكونون نقابة عرفت باسم نقابة الأشراف لها رئيس يتولى أمورهم، ويضبط أنسابهم، ويدون مواليدهم ووفياتهم، ويطالبهم بأداء الحقوق، وينوب عنهم فى المطالبة بحقوقهم فى سهم ذوى القربى من الفىء والغنيمة ويقسمه بينهم ويمنع نساءهم أن يتزوجن إلا من الأكفاء[1]. وقد حرم على الأشراف الصدقة هم ومواليهم[2]. ويذكر الصاحب بن عباد أن العلويين كانوا يخاطبون بالشرفاء وأنه كان منهم النقباء فى العراق[3].

وكان نقيب الأشراف يتولى القضاء فيما ينشب بين الأشراف وبين سائر الناس من خصومات[4].

وقد خضع بنو هاشم من العباسيين والطالبيين لنقيب واحد حتى القرن الرابع الهجرى، ثم صار لكل فريق منهم نقيبًا خاصا منذ النصف الثانى من ذلك القرن وذلك بسبب ما طرأ على موقف العباسيين من الضعف فى عهد البويهيين، بينما أخذ نفوذ العلويين فى الظهور؛ حيث كان يساندهم الأمراء البويهيون الذين كانوا من المتعصبين لمبادئ الشيعة. وإلى جانب ما كان يُمنح للأشراف من رواتب كانوا يتولون إمامة المساجد وإمامة الحجيج[5] والإشراف على مصالح المساجد فى بغداد وصيانتها.

---

(1) النجفى: تاريخ الكوفة ص199.
(2) الجاحظ: رسائل الجاحظ ص2.
(3) رسائل الصاحب بن عباد ص144 ـ 151.
(4) أصدر الخليفة المطيع فى سنة 354هـ كتابًا بتقليد الشريف «الحسين بن موسى» نقابة الطالبيين جاء فيه: "فإن تظلم إليك بعض رعية أمير المؤمنين وشكا أحد من الطالبيين فخذ بمساواة خصمه وامنعه من الاستطالة عليه، واعمل فى أمرهما بما كان يتولى هذه النقابة بعمله قبلك... ليقع القضاء بينهم موقعه ويصل ذو الحق إلى حقه". الصابى: رسائل الصابى جـ3 ص153.
(5) ابن الجوزى: المنتظم ص90 ويذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب جـ9 ص69 ، 70 أن إمارة الحج تولاها بعض رجال من الطالبيين منذ عام 203هـ ثم عادت إلى العلويين بعد عام 336هـ.
ويذكر ابن الجوزى أن الخليفة «المطيع لله» العباسى أعطى العباسيين والعلويين سنة 334هـ فى يوم واحد ما يزيد على ثلاثين ألف درهم. المنتظم ص74. وكان يعطى كل فرد من الأشراف فى بغداد دينارًا فى كل شهر فى عهد المعتمد سنة 256هـ ـ 279هـ ثم تناقص هذا القدر فى عهد الخليفة «المعتضد» فبلغ ربع دينار وكان عددهم وقتذاك أربعة آلاف، وبلغ مقدار ما أنفق عليهم ألف دينار فى الشهر فى حين كان عدد الأشراف فى مستهل القرن الثالث الهجرى ثلاثة وثلاثون ألفًا. الجهشيارى: كتاب الوزراء ص20.

وقد ارتفع شأن العلويين فى العراق فى ظل حكم «بنى بويه» وكان العلويون يتوسطون فيما يقوم من خصومات فى بيوت الشيعة من بنى حمدان وبنى بويه. وقد أصدر الأمير بهاء الدولة سنة 403 هـ كتاب تقليد «الرضى الموسوى» نقابة الطالبيين[1] بالعراق وجعله نقيب النقباء، كما طلب منه إعلان إنكار نسب الفاطميين بقوله: "إن الخليفة بمصر يدعى أنه علوى فأنكروا انتسابه إليهم"[2]، وذلك بعد أن ساءت العلاقة بين عضد الدولة «البويهى» والفاطميين بعد أن بدت له خطورة نفوذ الفاطميين فى مصر على وجودهم بالعراق.

وتميز الأشراف بزى خاص بأن جعلوا زوائد (شطفات) فى عمائهم الخضراء، وكانوا يكونون طبقة متميزة لها كيانها الخاص؛ فقد كانت للشريف «أبى الحسين العلوى» المتوفى سنة 390هـ أموال كثيرة وضياع عديدة وحاشية كبيرة وكانوا يجلسون فى بلاط الخلفاء والوزراء وعلى اتصال بالخلافة العباسية وبالأمراء البويهيين أصحاب السلطة الفعلية.

وقد تولى الشريف «أبو أحمد الدسوقى» عقد قران الأميرة ابنة بهاء الدولة على الخليفة العباسى «القادر» سنة 384هـ[3].

ويذكر «أبو المحاسن»[4] ما كان يتمتع به «أبو أحمد الموسوى» سنة 400 هـ من منزلة

---

(1) كان يتولى تعيين نقيب الطالبيين كما يذكر الماوردى "إما.. من وجه الخليفة المستولى على كل الأمور، وإما ممن فوض الخليفة إليه تدبير الأمور كوزير التفويض وأمير الإقليم.. وإما من نقيب عام الولاية.. فإذا أراد المولى أن يولى على الطالبيين نقيبًا أو العباسيين نقيبًا يختار منهم أجلهم بيتًا وأكثرهم فضلا وأجزلهم رأيًا، فيولى عليهم لتجتمع فيه شروط الرياسة والسياسة، فيسرعون إلى طاعته برياسته، وتقسيم أمورهم بسياسته". الأحكام السلطانية ص92.

(2) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص36 والمعروف أن الفاطميين كانوا حريصين على نشر الدعوة الفاطمية فى بلاد العراق فأقيمت الدعوة للخليفة الفاطمى «العزيز» سنة 382هـ فى الموصل كما استمال «الحاكم بأمر الله الفاطمى» معتمد الدولة ـ أمير بنى عقيل الذى آلت إليه السيادة فى الموصل وقام بنشر الدعوة الفاطمية فى الأنبار والمدائن والكوفة وأحل اسم الخليفة الفاطمى «الحاكم بأمر الله» فى الخطبة محل الخليفة العباسى.
ابن الأثير: الكامل جـ9 ص76 ، 77. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص226 ـ 227.

(3) ابـن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص327. الشريف المرتضى: ديوان الشريف المرتضى جـ1 ص9 ، 10.

(4) النجوم الزاهرة جـ4 ص223.

عظيمة فيقول: «كان سيدًا عظيمًا مطاعًا.. وكانت هيبته أشد من هيبة الخلفاء.. وكانت منزلته عند بهاء الدولة أرفع المنازل ولقبه بالطاهر وذى المناقب».

وقد استخلف الشريف «أبو أحمد الموسوى» ولديه «المرتضى» و«الرضى» على النقابة "وخلع عليهما من دار الخلافة ببغداد"[1].

غير أن الأشراف كانوا يتعرضون أحيانًا إلى سخط الأمراء البويهيين إلى حد مصادرة أملاكهم وحبس الكثيرين[2] منهم فى السجون وذلك لدورهم كمصدر من مصادر الفتن والاضطرابات التى عمت العراق خلال عصر بنى بويه[3]، والتى أدت إلى إضرام نيران الفتنة بين الشيعيين والسُّنيين، حتى اضطر الأمير البويهى «بهاء الدولة» سنة 401هـ إلى استخدام القوة فى قمع تلك الثورة[4].

الديلم

وهم من الشعوب التى سكنت فى الجنوب الشرقى لبحر قزوين، وقد جاء بعضهم إلى العراق قبل مجىء بنى بويه سنة 334هـ . وارتبط الديلم[5] بالعراق كقوة لعبت دورًا مهمًّا

---

(1) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص318. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص157.

(2) ابن الجوزى: المنتظم جـ6 ص334.

(3) ابن الجوزى: المنتظم جـ6 ص334.

(4) ابن الجوزى: المنتظم جـ6 ص334، تعرض نفوذ بنى بويه فى العراق للخطر حيث خطب «قراوش ابن المقلد» أمير بنى عقيل الذى آلت إليه السيادة فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة للخليفة الحاكم بأمر الله فأرسل الخليفة القادر أبو بكر الباقلانى» الفقيه المعروف إلى «بهاء الدولة» وطلب إليه أن يعمل على قمع هذه الفتنة فأرسل بهاء الدولة جيشًا اضطر قراوش إلى إعادة الخطبة للخليفة العباسى. وقد كان حرص بهاء الدولة على نفوذه فى بلاد العراق مدعاة لما قام به من الإجابة لطلب الخليفة وليس حرصًا على الخليفة العباسى الذى لم يكن له من الأمر شىء.
ابن الأثير: الكامل جـ9 ص83. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص233.

(5) ترجع علاقة الديلم تاريخيا بالعراق إلى بداية الفتح العربى الإسلامى الذى تم بانتصار المسلمين فى معركة القادسية سنة 14هـ وكان عددهم أربعة آلاف أسلموا واستأمنوا العرب بعد مقتل «رستم» قائد الفرس، وانضموا إلى صفوف المسلمين وسموا حمراء الديلم أو ديالمة الكوفة وكان «زياد بن أبيه» قد سير بعضهم إلى بلاد الشام بأمر معاوية فعرفوا هناك بالفرس. ولم يذكر للديلم خلال العصور الإسلامية المتعاقبة دورا مميزا لأنهم كانوا يعدون من جملة الموالى. البلاذرى: فتوح البلدان ص358، ص 380.

فى الأحداث السياسية، خاصة فى مجال المنافسة للعنصر التركى المتسلط على البلاد، وقد تجلت أطماع الديلم خلال هذه الفترة فى صراعهم مع الأتراك الذين كانوا ـ يجتمعون معهم على طبائع متشابهة من الخشونة[1].

وحين انتقلت السلطة إلى البويهيين صار الديالمة يُكونون الجزء الرئيس من الجيش، ومنحوا كثيرًا من الإقطاعات، وسرعان ما استعرت المنافسة بينهم وبين الأتراك ووقع بنو بويه فيما وقع فيه العباسيون من قبل فأصبح الديالمة خطرًا يهدد كيان الدولة بسبب قيام المنافسة بينهم وبين الأتراك.

وقد فطن «معز الدولة» البويهى قبل وفاته سنة 356هـ إلى هذا الخطر فأوصى ابنه «بختيار» بالديلم بأن يدفع لهم مرتباتهم فى أوقاتها كى لا يتألبوا عليه فلما تولى بختيار طالبه الديلم برفع مرتباتهم فاضطر الوزير «أبو الفضل» إلى مصادرة أموال الحاشية، كما طالب برفع مقدار الخراج ليتمكن من دفع استحقاقاتهم[2]، غير أنه نفى بعض الديلم

---

(1) التنوخى: نشوار المحاضرة جـ1 ص325، كان جيش الخليفة «المقتدر» يضم الديلم بين صفوفه ففى سنة 320هـ قاتل بهم «مؤنس الخادم» عند خروجه على الطاعة إلى أن قتل الخليفة على يد المغاربة من جيش مؤنس، ولم يكن ما تعرض له الديلم على يد «ابن رائق» خاتمة نفوذهم فى العراق إذ سرعان ما عادوا فى جيش «أبى الحسين البريدى» الذى استولى على بغداد فى السنة ذاتها فانتقم الديلم من العامة ودخلوا دار الخلافة وقتلوا من وجدوه فيها ونهبوها، واستمر الديلم فى النهب والسلب إلى أن تقلد «توزون» الشرطة. كما أكد الديلم وجودهم فى الدولة حين انحازوا إلى «ناصر الدولة بن حمدان» عند سيطرته على بغداد سنة 331هـ. إلا أن ناصر الدولة الحمدانى لم يثبت أمام ثورة الأتراك هذه فى بغداد، كما رحل الديلم عن بغداد إلى واسط والبصرة وسيطر الأتراك على دار الخلافة ببغداد، وكان لهذا الوجود الديلمى فى العراق على هذه الصورة من المشاركة الواضحة فى الحكم والسياسة ما أعطى للطامعين من أبناء بويه دفعًا معنويًا لدخول العراق عسكريًا خاصة أن دورهم فى نصرة «على ابن بويه» فى فارس ليست ببعيدة عن الأذهان حين انسحبوا سنة 322هـ من جيش «المظفر ياقوت» وانضموا إلى جيشه وكتبوا له النصر بدخوله مدينة أصبهان. مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص41. ابن الجوزى: المنتظم جـ6 ص338. الصولى: الأوراق ص209، أبو الفداء: المختصر جـ2 ص 113.

(2) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص334 ـ 336، يذكر الرسالة التى بعث بها «سبكتكين» التركى إلى بختيار بقوله: «ثم إن سبكتكين راسل بختيار بأنك قد جنيت على نفسك جناية عظيمة بما ارتكبته ودبرته.. وأن الأمر الآن خرج عن اليد، فأفرج لى عن داره حتى تكون هى وبغداد فى يدى بإزاءً =

خارج بغداد طمعًا فيما بحوزتهم من أموال وإقطاعات، مما كان سببًا فى اضطراب العلاقات بينه وبين الديلم وما ترتب عليه من وقوع الفتنة بين الأتراك والديلم فى الأهواز ونهب الديلم لبيوت رؤساء الأتراك وقوادهم ونودى فى الأهواز باستباحتها، وانضم السُّنيون من أهل العراق إلى الأتراك وقاموا بنهب دور الديلم، وكان الديلم أكثر عددًا من الأتراك؛ ففى سنة 372 هـ كان تعداد الديلم ما يقرب من خمسة عشر ألفًا بينما بلغ عدد الأتراك ثلاثة آلاف[1]. وكان أفراد بنى بويه يلجأون أحيانًا إلى إيثار الأتراك على الديلم كما حدث فى عهد بهاء الدولة الذى ظاهر الأتراك على الديلم على إثر قيام القتال بين الطرفين سنة 279هـ مما اضطر الديلم إلى طلب الصلح والأمان[2]، غير أن بهاء الدولة سرعان ما لجأ إلى استمالة زعيم الديلم إليه لمحاربة ابنى بختيار اللذين انتقلت إليهما الزعامة فى فارس[3]، مستغلين حنق الديلم عليه لاعتماده على الأتراك. وعلى أية حال فقد حرص البويهيون على الاعتماد على الديلم كرجال للدولة ومصدر لقوتها.

= أموال الأتراك التى قد حصلت عليها وتكون البصرة والأهواز ونواحيهما فى يدك بإزاء أموال الديلم، واجعل أمرى وأمرك واحدًا ولا تدخلن بيننا أحدًا، ولا تفتح للحرب بابًا فلست من رجالها فأنا ناصح لك مشفق عليك حافظ وصية مولاى فيك التى ما حفظتَ مثلها قَّ. فعرض بختيار هذه الرسالة على الديلم فأنكروها وأكبروها واستخفوا بقائلها.. فجد سبكتكين واستعد للحرب» تجارب الأمم جـ2 ص333 ، 334.

(1) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص298. ابن خلدون: العبر جـ3 ص428 ـ 433. ويذكر أبو المحاسن أنه كان من نتائج تفاقم الأزمة بين بختيار البويهى من ناحية وبين سبكتكين والخليفة الطائع من ناحية أخرى أن اشتعلت الحرب بين الفريقين سنة 364هـ . النجوز الزاهرة جـ4 ص108.

(2) ابن خلدون: العبر جـ3 ص433، ابن الأثير جـ9 ص23.

(3) حاول بهاء الدولة التخلص من أبناء بختيار الذين قتلوا «صمصام الدولة» واستولوا على فارس وعولوا على محاربته واستمالة الديلم الذين كانوا يحنقون على بهاء الدولة لاعتماده على الأتراك. وتمكن بهاء الدولة من أن يحدث الشقاق فى صفوف أبناء بختيار وأن يوقع بهم الهزيمة ويستولى على فارس سنة 389هـ . أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم جـ3 ص326 ، 327. هلال بن الصابئ: كتاب التاريخ ص 379 ـ 494.

الأتراك[1]

ظهر العنصر التركى كأحد العناصر المهمة التى شاركت فى الحياة الاجتماعية فى العراق فى القرن الثالث الهجرى[2]، فقد اتخذ الخليفة «المعتصم» من الأتراك حرسًا خاصًّا له كما أسند إليهم مناصب الدولة، وآثرهم على الفرس والعرب. وما لبث أن تفاقم خطر هؤلاء الأتراك فى عهد «المعتصم»[3]. فعاثوا فى بغداد فسادًا، فتذمر الناس، مما اضطر المعتصم

---

(1) وردت كلمة ترك أول ما وردت فى القرن السادس الميلادى عَلَمًا على شعب من البدو؛ حيث أقام الترك فى ذلك القرن دولة بدوية امتدت من بلاد المغل حتى حدود الصين الشمالية من ناحية وحتى البحر الأسود من ناحية أخرى بقيادة "بومين" (كما تسميه المصادر الصينية) سنة 552م. ويذكر الطبرى أخًا لبومين يدعى «سنجبو» خاقان تمكن من مد نفوذه إلى الغرب منه، وكان أهل الصين يفرقون بين هاتين الدولتين التركيتين فيقولون دولة الترك الشمالية ودولة الترك الغربية، وتعد قبائل التركش أشهر قبائل الترك الغربية التى تلقب شيوخها بالخانية فى الأعوام الأخيرة من القرن السابع. وقضى العرب بقيادة «نصر بن سيار» على مملكة التركش سنة 121هـ 739م ويطلق جغرافيو العرب فى القرنين الثالث والرابع الهجريين كلمة ترك على طائفة من الشعوب وفرع من اللغات، فقد ذكروا خمسة شعوب تتكلم لغة واحدة هى التغزغز والقرغين والكيماك والغز والقرلق. وكانت الأراضى التى تقع على نهر «ينيس الأعلى» فى ذلك الوقت تشمل الأطراف التى فى شمال شرق البلاد التى يقطنها الترك، وكانت أيضا حدود العالم كما عرفه العرب، وكان القرغير أبعد الشعوب التركية موطنا من ناحية الشمال الشرقى. وكان الأوغوز والقرلق يحفون بالبلاد الإسلامية فى آسيا الوسطى، وكانت بلاد الأوغوز تتاخم جرجان وهى من أملاك المسلمين فى الغرب. الطبرى: الأمم والملوك جـ1 ص895 ، 896، جـ2 ص593 ـ 595،

Ency. OPf Islam. Vol-5-P. 44-57 W.Balthold.

(2) بدأ الترك فى الظهور فى بلاط الخلافة العباسية حيث كانوا يجلبون كأسرى فى الحروب التى وقعت بين العرب والترك على الحدود الشرقية، وكذلك بطريق الشراء أو كهدايا للخلفاء العباسيين. السيوطى: تاريخ الخلفاء ص223 ـ كان طابع الترك حب الجندية والفروسية وينظرون باحتقار إلى أهل البلاد التى يحكمونها، ولا يميلون إلى الفلسفة والجدل وقد أطلق عليهم الجاحظ اسم «أعراب العجم»، وهم خشنو الطبع سريعو الغضب.

(3) زاد خطر هؤلاء الأتراك مما حدا بالمعتصم إلى أن يفصح عن ذلك فى قوله: "نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم... وأنا اصطنعت الإفشين فقد رأيت إلى ما صار أمره، وأشناس ففشل رأيه، وإيتاخ فلا شىء. ووصيف فلا مغنى فيه. فقلت: يا =

اتقاء للفتنة أن يشيد لهم مدينة سامرا[1]، وأقطعهم الضياع، غير أن الفساد ما لبث أن عمَّ المدينة الجديدة من جراء الصراع والمنافسة بين أمراء الترك[2]، فتحول الخلفاء عنها إلى بغداد سنة 289هـ .

= أمير المؤمنين أعزك الله نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب إذ لا أصول لها". الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ11 ص8 ، 9. وقد كان المعتصم يتخذ لجنده ثكنات خاصة يعيشون فيها عيشة عسكرية، وبرز من قواد المعتصم الإفشين وإيتاخ وأشناس. ولم يكن الجيش العباسى فى عهده يعتمد على الترك وحدهم بل كان هناك فريق من الجند الخراسانية وفريق من المغاربة وهم من أهل الحوف فى مصر، غير أن المعتصم جعل الترك محل عنايته واهتمامه فأسند إليهم قيادة الجيش وحرم العرب من المراكز العليا فأسقط أسماءهم من الدواوين. وآثر الترك على الفرس كذلك مما أدى إلى شعور الترك بالقوة التى أساءوا استخدامها. المسعودى: مروج الذهب جـ4 ص9. ياقوت الحموى: معجم البلدان جـ5 ص14. خاصة بعد السياسة التى نهجها الخلفاء بإقطاع الأتراك الولايات الإسلامية، وما جرت عليه العادة من استخلاف هؤلاء الأتراك نوابًا عنهم يحكمون هذه الولايات باسمهم، فكان يُدعى لهم بعد الخليفة فى خطبة الجمعة وينقش اسمهم على السكة. المسعودى: مروج الذهب جـ4 ص10، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص226.

(1) يذكر ياقوت الحموى أن العامة اجتمعت على باب المعتصم وقالوا له: "إما أن تخرج من بغداد، فإن الناس قد تأذوا بعسكرك أو نحاربك. فقال: كيف تحاربونى؟ قالوا: نحاربك بسهام السحر. قال: وما سهام السحر قالوا: ندعو عليك. فقال المعتصم: لا طاقة لى بذلك". فعول على الانتقال إلى موضع اختاره شرقى نهر دجلة يبعد عن بغداد بستين ميلا جهة الشمال واتخذه عاصمة للدولة سنة 221هـ، شيد بها قصرًا ومسجدًا جامعًا وثكنات لجنده وأقطع القطائع لرؤساء الأتراك، المسعودى: مروج الذهب جـ4 ص9 ، 10. ياقوت: معجم البلدان جـ5 ص15.

(2) Hitti: History of the Arabs P. 466

كان الأتراك فى صراع بعضهم لبعض حيث يتعصب كل فريق لأحد قواده، ويذكر المسعودى أن الأتراك "كانوا يؤذون العوام بمدينة السلام بجريهام بالخيل فى الأسواق وإلحاق الأذى بالضعفاء والصبيان، فكان أهل بغداد يثورون بعضهم على بعض فيقتلونهم إذا صدموا امرأة أو شيخًا كبيرًا أو صبيًّا أو ضريرًا". المسعودى: مروج الذهب جـ1 ص.349 كما يذكر الطبرى أن واحدًا من أهالى بغداد استوقف المعتصم وقال له: "لا جزاك الله عن الجوار خيرًا، جاورتنا وجئت بهؤلاء الترك فأسكنتهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت بهم نسواننا وقتلت بهم رجالنا والمعتصم يسمع ذلك كله". الأمم والملوك جـ10 ص310 ، 311.

وقد شعر المعتصم بخطأ اعتماده على الترك واستكثاره منهم وإيثارهم بالسلطة وما سببه ذلك من اضطراب أحوال المجتمع العراقى، وفقد العباسيون ثقة العناصر الأخرى فى الدولة خاصة العرب الذين انصرفوا عن تأييد العباسيين بعد أن أهملوا شأنهم وأسقطوا أرزاقهم.

استمر نفوذ الأتراك فى الازدياد خاصة فى عصر الخليفة «المتوكل»، الذى عقد العزم على نقل حاضرة الدولة إلى دمشق[1] هروبًا من استبداد الأتراك فى العراق إلا أنهم تمكنوا من تدبير مؤامرة لقتله سنة 247هـ وبايعوا «المنتصر» بالخلافة... واستحفل خطر الأتراك، واختل نفوذ الخلافة وفقدت فاعليتها[2]، ولم يكن للخليفة المتوكل إزاء هذا الخطر إلا مراعاة الأتراك حينًا وتدبير الحيل والدسائس حينًا آخر[3].

وعلى الرغم من أن دخول البويهيون بغداد سنة 334هـ ، قد حد بعض الوقت من سيطرة الجند الأتراك التى هددت الدولة العباسية قرنًا من الزمان[4]، إلا أن العنصر التركى أخذ فى الاضطراد، فقد استكثر «معز الدولة» البويهى سنة 334 ـ 335هـ من

---

(1) رحل المتوكل سنة 244 إلى دمشق غير أن الأتراك ثاروا عليه فلم تطل إقامته بدمشق وعاد إلى سامراء وهناك تآمر «عبيد الله بن خاقان» وزير المتوكل و«الفتح بن خاقان» وهو من خاصة الخليفة ضد المتوكل وأوغرا صدر ابنه وولى عهده المنتصر عليه ودبروا أمر قتله. المسعودى: مروج الذهب جـ4 ص64.

(2) قبض قواد الأتـراك على زمام السلطة فى العراق وبايعوا بعد موت المنتصر« أحمد بن محمد بن المعتصم» ولقبوه "بالمستعين بالله" وأصبحوا هم أصحاب السلطة الفعلية حتى تمكنوا من خلع المستعين وتمكنوا من إبعاده عن بغداد، وبايعوا المعتز. واستمر للأتراك سلطة تعيين الخلفاء وإقالتهم؛ فكانوا يختارون من يجدون فيه طواعية وضعفًا فعمدوا إلى إسناد الخلافة إلى خلفاء صغار فى السن كما حدث فى خلافة المقتدر حيث "كان الأمراء والوزراء والكتاب يديرون الأمور ليس له فى ذلك حل ولا عقد". المسعودى: التنبيه والإشراف ص377، ابن الأثير الكامل فى التاريخ جـ8 ص75 ، 76.

(3) منذ بداية القرن الرابع الهجرى لم يعد للخليفة العباسى نفوذ إلا على بغداد وضواحيها حيث استقر الأمراء الأتراك بإماراتهم فاستقلوا بالولايات الشرقية؛ فوسع سبكتكين ملكه من هراة إلى غزنة وامتد نفوذه إلى فارس بعد استيلائه على خراسان، وقضى على نفوذ البويهيين فى الرى وبلاد الجيل. ابن الأثير: الكامل جـ9 ص17.

Stanley Iane Poole: Muhammadan Dynasties P. 287-288.

(4) ابن خلدون: العبر جـ 3 ص 422.

الموالى الأتراك «ليجدع بهم أنف قومه من الديلم» فزاد فى إقطاعاتهم وفرض لهم الأرزاق، وأسرف فى تمويلهم والإغداق عليهم والعناية بهم وتقريبهم، فقد قضت الضرورة أن يعتمد عليهم فى حروبه فكان يحضهم ويشجعهم على القتال[1]. وكان من أثر هذه السياسة التى اتبعها بعض أمراء بنى بويه مع الأتراك والاستظهار بهم على الديلم، والانحياز إليهم ضد خصومهم أن أخذت قوة الديلم فى الضعف بينما قويت شوكة الأتراك وعلت مكانتهم[2].

فعظم حقد الديلم عليهم وآل الأمر «المنافرة وإحداث الفتن وصارت هذه المعاملة لقاحًا لها وسببًا لوقوع ما وقع» من الفتن والاضطرابات، كما اشتد طمع الأتراك فى المال وحبهم له وكثر تسلطهم ببغداد وشاركوا العيارين[3] جرائم سرقاتهم فأصبحت منازلهم وكرًا لهؤلاء اللصوص نهارًا وقاعدة للسطو على المنازل ليلا وأخذوا يفرضون الأموال على الناس، ففرضوا على أهل الكرخ مائة ألف دينار، وعظم الخطب وزاد الشر وأحرقت المنازل والدروب والأسواق فشجعوا العامة على النهب والسلب وفرض

---

(1) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص96 ـ 100، 163. ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص308. ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص275.

(2) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص100، ص163.ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص318. ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص275.

(3) يعرف العيار فى اللغة بأنه الرجل كثير الحركة وجاء فى القاموس المحيط للفيروز آبادى جـ2 ص98: "العيار الكثير المجىء والذهاب. أما كتب التاريخ فقد اختلفت فيما أطلقته على العيارين فهم يسمون فى بعض الأحيان «الرعاع والأوباش والطرادين». الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ10 ص181 وقد ازدادت أعدادهم نتيجة ضعف الحكومة حتى أصبحت ظاهرة فرضت نفسها على المجتمع العراقى وعرفت لأصحابها صفات مميزة بأقوالهم وأفعالهم واستمرت هذه الفئة تؤكد وجودها فى فترات الاضطراب السياسى والتدهور الاقتصادى والقلق الاجتماعى. ابن الجوزى: أخبار الظراف ص46. المسعودى: مروج الذهب جـ8 ص164 وقد بلغوا من الكثرة فى المجتمع العراقى أن قال عنهم المقدسى إنهم "إذا تحركوا ببغداد أهلكوا". أحسن التقاسيم ص130 وكان العيارون يضمون فى صفوفهم أجناسًا وطوائف مختلفة فمنهم العرب والأكراد والفرس والترك كما سنوضح فيما بعد. ابن الجوزى: المنتظم جـ2 ص88، ابن الأثير: جـ7 ص222.

الإتاوات[1]. وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا من أشد الناس إخلاصًا لأهل السنة، فإن الخلفاء العباسيين لم يسلموا من شغبهم فبعد وفاة «القادر بالله» سنة 422هـ /1031م ومبايعة ابنه «القائم بأمر الله» طالبوه برسم البيعة[2] وثاروا عليه ولم تهدأ ثائرتهم إلا بعد أن باع بعض ممتلكات دار الخلافة وصالحهم على أن يدفع لهم ثلاثة آلاف دينار[3].

كذلك تألب الأتراك على أمراء بنى بويه وأخذوا يتدخلون فى توليتهم ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء[4] كما كانوا يشعلون الثورات ضدهم كما حدث عندما ثاروا على «جلال الدولة البويهى» سنة 419 وحاصروه فى داره ومنعوا عنه الماء والطعام[5]. وقاموا بنهب دور الأمراء ببغداد، وفسدت الأمور إلى حد لا يرجى إصلاحه[6]، وفى سنة 446هـ ثاروا على وزير الملك الرحيم (440 ـ 447هـ) مطالبين

---

(1) ابن الأثير: الكامل جـ9 ص438، يحيى الأنطاكى: صلة التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جـ2 ص143.

(2) ثار الأتراك والديلم وطالبوا برسم البيعة على ما جرت به العادة ومنعوا الخطبة باسم الخليفة. أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم جـ3 ص207 ، 208. ابن العماد؛ شذرات الذهب جـ3 ص223.
كما يذكر ابن الأثير أن الأتراك ثاروا على جلال الدولة ببغداد ونهبوا داره ودور أنصاره فنهبوا صياغات أخرجها جلال الدولة لتضرب دنانير ودراهم وفرق فيهم، وحصروا جلال الدولة فى داره ومنعوه الطعام والماء حتى شرب أهله ماء البئر وأكلوا ثمرة البستان.. ثم أرسل إلى الخليفة ليصلح الأمر مع أولئك القواد فأرسل إليهم الخليفة القادر بالله فأصلح بينهم وبين جلال الدولة.. فلم يمض غير أيام حتى عادوا إلى الشغب فباع جلال الدولة فرشه وثيابه وخيمه وفرق ثمنه فيهم حتى سكنوا". الكامل فى التاريخ جـ9 ص137.

(3) ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص203.

(4) يذكر ابن الأثير أنه فى سنة 418هـ "خطب للملك جلال الدولة «أبى طاهر» ابن بهاء الدولة ببغداد وأصعد إليها من البصرة وكان سبب ذلك أن الأتراك لما رأوا أن البلاد تخرب وأن العامة والعرب والأكراد قد طمعوا وأنهم ليس عندهم سلطان يجمع كلمتهم فقصدوا دار الخلافة وأرسلوا يعتذرون إلى الخليفة من انفرادهم بالخطبة لجلال الدولة أولا ثم برده ثانيًا وبالخطبة لأبى كاليجار... فأجابهم الخليفة إلى ما سألوا وراسله هو وقواد الجند فى الإصعاد واليمين للخليفة والأتراك فحلف لهم وأصعد إلى بغداد وانحدر الأتراك إليه فلقوه فى الطريق وأرسل الخليفة إليه القاضى أبا جعفر فأعاد تجديد العهد عليه للخليفة والأتراك ففعل". ابن الأثير: الكامل جـ9 ص135.

(5) ابن الأثير: الكامل جـ9 ص137.

(6) يحيى الأنطاكى: صلة التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جـ2 ص143.

بأرزاقهم[1] ثم حاصروا دار الخلافة وعاثوا فسادًا فى بغداد وتمادوا فى عبثهم فكانوا عاملا أساسيًا من عوامل التخريب والفوضى فى المجتمع العراقى. فقد كان قواد الأتراك لمكانتهم بين الجند بفضل ما ملكوه من إقطاعات، وما استحوذوا عليه من الأموال عنصرا مناوئا للأمراء من بنى بويه، فدخلوا معهم فى صراع طويل وحاربوهم ونهبوا قصورهم مما أثار غضب البويهيين ووزرائهم، وعرضهم بالتالى إلى القبض عليهم ومصادرة إقطاعاتهم وممتلكاتهم. وغالبًا ما كانت هذه الأمور سببًا لقيام الفتن واضطراب الأمن وانتشار الفوضى[2].

الأكراد

وهم سكان القسم الأعلى من الجزيرة فى الجهات الشرقية والشمالية الشرقية، وأكثرهم رعاة واستقر بعضهم فى قرى قرب الموصل، وفى بعض المدن كالموصل[3] وبنوا بعض القلاع على مقربة من هذه المدينة واستفحل أمرهم. الأمر الذى دفع عضد الدولة سنة 369 هـ إلى إرسال جيش لمحاربتهم فحاصر قلاعهم وأوقع بهم الهزيمة[4].

وقد عانى المجتمع العراقى الكثير من الذعر الذى نشروه فى القرى والمدن، ولم تسلم بغداد من عبث بعضهم؛ ووصل بهم الأمر إلى احتراف السرقة والإغارة على بغداد، فكانوا يسرقون دواب الأتراك وخيولهم مما اضطر الأتراك إلى نقل خيلهم إلى دورهم حتى إن الأمير البويهى جلال الدولة نقل دوابه إلى دار المملكة[5]. ويذكر «ابن كثير» أن الناس كانوا فى أوقات الفتن والاضطراب يعتصمون منهم فى المنازل حرصًا على أنفسهم وممتلكاتهم[6]. ورغم ذلك استخدم البويهيون الأكراد كأحد العناصر الرئيسة فى الجيش البويهى[7].

---

(1) ابن الأثير: الكامل جـ9 ص228.
(2) يحيى الأنطاكى: صلة التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جـ2 ص143 ، 144.
(3) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص304.
(4) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص238 ـ 239. ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص304.
(5) ابن الأثير: الكامل جـ9 ص280.
(6) ابن كثير: البداية والنهاية جـ12 ص28.
(7) رسائل الصاحب بن عباد ص20.

وقد أشار ابن الجوزى إلى ما كان يقوم به بعض الأكراد من قطع الطرق بقوله: "قطع الأكراد على قافلة خرجت من العراق إلى خراسان فأخذوا منها ما قيمته ثلاثة آلاف دينار[1]. وقد حدا الأمر بالبويهيين إلى توجيه عنايتهم لحماية الطرق التجارية فعينوا حراسا يتناوبون العمل ليلا ونهارا[2].

غير أن البويهيين لم يضربوا على أيدى الأكراد ولم يمنعوهم من العبث. وكان الأمير البويهى «ركن الدولة» يرى أن دولته مقرونة بدولة الأكراد. وكان يرضى "أن يقال له قطعت القافلة، وسيقت المواشى فيقول لأن هؤلاء «الأكراد» يحتاجون إلى القوت"[3].

(1) ابن الجوزى: المنتظم جـ6 ص318.
(2) رسائل أبى إسحق الصابى ص134 ـ 136.
(3) مسكويه. تجارب الأمم جـ6 ص354 ـ 356.

الباب الثاني

طبقات السكان

طبقات السكان

1 ـ طبقة الخلفاء والأمراء

أولاً: طبقة الخلفاء

اتبع البويهيون تجاه الخلفاء العباسيين سياسة التنكيل والاستخفاف وقد عبر «ابن الأثير»[1] عما وصل إليه حال الخلافة العباسية فى عهد البويهيين بقوله: "ازداد أمر الخلافة إدبارًا ولم يبقَ لهم من الأمر شىء البتة وقد كانوا يراجعون ويأخذون أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشىء فلما كان أيام «معز الدولة» زال ذلك جميعه بحيث إن الخليفة لم يبقَ له وزير، إنما كان له كاتب يدير إقطاعاته وإخراجاته لا غير... وكان من أعظم الأسباب فى ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها، فلم يكن عندهم باعث دينى يحثهم على الطاعة". "وكانت الخلافة قد طرقها الإعلال وغلب عليها الموالى والصنائع"[2].

وقد بالغ «معز الدولة البويهى» (334 ـ 356هـ) فى الاستهزاء بالخليفة «المستكفى» عند خلعه "فحضر معز الدولة فى قومه وعشيرته وأمر رجلين من نقباء الديلم بالفتك بالخليفة

---

(1) الكامل فى التاريخ جـ8 ص149.

(2) يذكر ابن خلدون أن البويهيين "من قواد الديلم الذين تطاولوا للاستيلاء على أعمال الخلفاء العباسيين ولما لم يروا عنها مدافعًا ولا لها حامية فتنقلوا فى نواحيها" . ابن خلدون: العبر جـ4 ص921.

فتقدما ووصلاه ليقبلا يد «المستكفى»، ثم جذباه عن سريره وقاداه ماشيًا واعتقلاه بداره... فاضطرب الناس وعظم النهب ونهبت دار الخلافة"[1]. ولم يبقَ للخليفة "سوى ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة وحددت له إقطاعات يسيرة يعيش منها تسد بعض حاجاته". وقد فكر «معز الدولة البويهى» فى إسقاط الخلافة العباسية وإسناد الخلافة إلى أحد العلويين إلا أن أصحابه أثنوه عن ذلك قائلين له: "ليس هذا برأى فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا.. فأعرض عن ذلك"[2].

وهكذا لم يبق من الخلافة العباسية إلا اسمها وقد علَّق على ذلك «المسعودى» بقوله: "وغلب على الأمر «ابن بويه» و«المطيع» فى يده لا أمر له ولا نهى ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر"[3].

وانهارت أحوال الخلفاء الاقتصادية وانحدرت من سيِّئ إلى أسوأ وقد عبر مسكويه عن هذا الوضع فى رد الخليفة المطيع على «بختيار عز الدولة» (356 ـ 367هـ) حينما طالبه بالمال بحجة الغزو بأن قال: "الغزو يلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى وإلىَّ تدبير الأموال والرجال، وأما الآن وليس لى منها إلا القوت القاصر عن كفائى وهى فى أيديكم وأيدى أصحاب الأطراف، فما يلزمنى غزو ولا حج ولا شىء مما ينظر الأئمة فيه، وإنما لكم منى هذا الاسم الذى يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم، فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضًا وتركت لكم الأمر كله"[4]. ومع هذا فقد باع الخليفة «المطيع» ثيابه وأنقاض داره من ساج ورصاص وجمع من ذلك أربعمائة درهم وبعث بها إليه[5].

---

(1) ابن خلدون: العبر جـ4 ص928.
(2) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص162.
(3) المسعودى: مروج الذهب جـ2 ص552.
Muir: the Galiphate P. 548.
(4) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص307 ، 308.
(5) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص66.

وتكررت أمثال هذه الحوادث فى العراق خلال فترة التغلُّب البويهى ففى سنة 381هـ قبض «بهاء الدولة» البويهى على الخليفة «الطائع لله» (363 ـ 381هـ) بعد أن دبر مؤامرة ظن الخليفة أنها النهاية وأنه الموت الذى لابد منه فأخذ يقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، فقد "جذبه بعض المتآمرين بحمائل سيفه وتكاثروا عليه ولفوه طى كساء وحملوه إلى دار الملك وحبسوه فيها كما نهبوا دار الخلافة". وقد صور الشريف الرضى هذه المأساة التى شاهدها فى أبيات منها[1]:

أمسَيتُ أَرحَمُ من قد أصبحتُ أَغبطُهُ ... لقد تَقَاربَ بين العزِّ والهونِ

ومنظر كان بالسَّراء يُضحكنى ... يا قُربَ ما عَاد بالضَّراء يبُكينى

هيهات اغترُّ بالسلطانِ ثانيةً ... قد ضَلَّ ولاج أبواب السَّلاطين

ولم يكن الأمراء البويهيون وحدهم هم الذين استهانوا بالخلفاء العباسيين، بل إن عامة الناس قد تطاولت على الخلفاء واستهانوا بهم، ففى سنة 362هـ حين استولى[2] الروم على نصيبين وقتلوا كثيرًا من المسلمين، فر بعضهم إلى بغداد واستنفروا الناس فى المساجد وكسروا المنابر ومنعوا الخطيب من الخطبة وحاصروا دار الخلافة وحاولوا الاعتداء على الخليفة «المطيع لله» الذى سمع تعنيفهم إياه لعجزه عن حماية المسلمين[3].

وقد عرف عن بعض الخلفاء العباسيين الورع والتقوى منهم الخليفة «القادر» (سنة 381 ـ 432هـ) الذى كان كثير البر والصدقات[4] فكان يقسم طعامه بين الفقراء فى

---

(1) يحى الأنطاكى: صلة تاريخ المجموع جـ2 ص173.

(2) ابن الجوزى: مرآة الزمان جـ21 ورقة 23،
Muir: The Galiphate P. 579.

(3) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص65. قام الأمير البويهى «عز الدولة بختيار» بمصادرة أموال الخليفة المطيع لله سنة 362هـ. مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص308.

(4) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ4 ص37 ، 38. وقد أنشد الشريف الرضى عدة أبيات تهنئة للخليفة قال فيها: =

جامعى بغداد والمهدى. ويذكر[1] أبو شجاع أن الخليفة «القادر» "جدد معاهد الخلافة وأنار أعلامها وكشف غمم الفتنة وجلا ظلامها".

وقد تزوج الخليفة القادر من ابنة الأمير البويهى «بهاء الدولة» سنة 383هـ[2]. وقد استمر الخليفة القادر فى الخلافة ما يزيد على إحدى وأربعين سنة بعد أن عقد له بهاء الدولة البويهى مجلسًا "حلف فيه بهاء الدولة القادر بالله على الطاعة والقيام بشروط البيعة وحلف له القادر بالوفاء والخلوص وأشهد عليه أنه قلده ما وراء بابه". وقد استمرت العلاقة بن الخليفة العباسى وبين بهاء الدولة

شرف الخلافة يا بنى العباس — اليوم جدده أبو العباس
هذا الذى رفعت يداه بنا ءها العالى وذاك موطد الأساس
فاليوم لم العز بعد تشعث — وأعيد ذكر الدين بعد تناس
قد كان زعزعك الزمان فراعه — عود على عجم النوائب عاس

ـ ديوان الشريف الرضى جـ1 ص417.

(1) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم جـ3 ص207 ، 208 كما يذكر أنه "إن كان لكل من الأئمة رضوان الله عليهم مناقب مروية وطرائق مرضية فإن لأربعة منهم فضائل أفردوا بمزاياها وحظوا بمرباعها وصفاياها، قام أمير المؤمنين «السفاح» بسفح دماء الأعداء، وتأخى كشف الغماء وتفرد بفضيلة الابتداء، و«المنصور بالله» أيد بالنصر فى توطيد قواعد الأمر فذلل كل صعب، وأزال كل شغب، وثقف كل منآد ومهد لمن بعده أحسن مهاد، ثم «المعتضد بالله» عضد الدولة بحسن تدبيره وسياسته، وتلافاها بشرف نفسه وعلو همته، وأعادها بعد الضعف على القوة وبعد اللين إلى الشدة وبعد الأود إلى الاستقامة وبعد الفتنة إلى السلامة. ثم «القادر بالله» قدر من صلاحها على ما لم يقدر عليه سواه وسلك من طريق الزهد والورع ما تقدمت فيه خطاه، فكان راهب بنى العباس حقًا وزاهدهم صدقًا ساس الدنيا والدين وأغاث الإسلام والمسلمين، واستأنف فى سياسة الأمر طرائق قويمة ومسالك مأمونة سليمة، هى إلى الآن مستمرة والقاعدة عليها مستقرة ولم تعرف منه زلة ولا ذمت له خلة، فطالت أيامه، وطابت أخباره واقتفيت آثاره وبقيت على ذريته الشريفة أنواره".

(2) بلغ مقدار الصداق مائه ألف دينار. ابن العميد: تاريخ المسلمين ص254. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص 164.

على شىء من الصفاء[1]، حتى تمكن من أخذ البيعة لابنه «أبى الفضل» ولقبه «الغالب بالله»[2].

ولم يترك الأمراء البويهيون للخلفاء العباسيين الانفراد بأى مظهر من مظاهر السلطة؛ فشاركوهم فى مظاهر السيادة فكان يذكر اسم الأمير البويهى فى خطبة الجمعة مع اسم الخليفة وينقش إلى جوار اسمه على السكة[3]. كما سلبوا الخلفاء مظهرًا آخر من مظاهر السيادة وهو عادة دق الطبول أمام باب الخلفاء أوقات الصلاة فصار يضرب على باب الأمير البويهى بالطبول والأبواق فى أوقات الصلوات الخمس كمظهر من مظاهر السيادة التى كانت قاصرة على الخلفاء العباسيين من قبل[4].

ثانيًا: طبقة الأمراء

ونقصد بهم أمراء بنى بويه الذين حكموا العراق فى الفترة من 334 ـ 447هـ ، وهؤلاء كانوا[5] من الديلم، البعيدين عن الثقافة العربية حتى إن معز الدولة حين

---

(1) هلال بن الصابئ: كتاب التاريخ جـ8 ص443.

(2) يذكر هلال بن الصابئ مجلس الخليفة بقوله: "جلس على السدة العالية بثياب سود متقلدًا سيفًا بحمائل فى البيت المعروف ببيت الرصاص وبين يديه نهر يجرى الماء فيه من دجلة ودخل إليه الأشراف والقضاة والشهود وأهل خراسان العائدون من الحج وقرئ فى المجلس على رءوس الملأ كتاب بتقليده «أبا الفضل» ولده العهد بعده وتلقيبه الغالب بالله... وكان له من السن فى هذا الوقت ثمان سنين وأربعة أشهر وأيام وكتب إلى البلاد بأن يخطب له بعده على نسخة قررت بحضرته". هلال بن الصابئ: كتاب التاريخ ص420.

(3) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص246 ـ 247. السيوطى: تاريخ الخلفاء ص270.

(4) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص270. مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص396. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ9 ص125.

(5) كان بنو بويه من أهل البلاد الديلم، بدأوا كجنود مغامرين وكان جدهم الملقب بأبى شجاع صيادًا فقيرًا ويذكر بعض المؤرخين أنهم ينتسبون إلى كسرى فارس بهرام جوار بن يزدجرد ويؤكد ذلك أبو إسحاق الصابئ فى كتابه المنتزع من كتاب التاجى فى أخبار بنى بويه ـ ورقة 19، وقد التحق من أولاد بويه: على والحسن وأحمد فى جيش ماكان بن كالى الديلمى واستطاعوا فى وقت قصير أن يصلوا إلى مراكز هامة لحنكتهم السياسية. =

جاء إلى بغداد سنة 334هـ واستولى عليها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير «على بن عيسى»[1].

وقد تميز أمراء بنى بويه بالتضافر الوثيق والطاعة التامة فيما بينهم؛ فيذكر ابن

= ولما حلت الهزيمة بهاكان بن كالى على يد منافسه مرداويج استأذنوه فى ترك خدمته قائلين: "الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخف عنك مؤونتنا" وانتقلوا إلى خدمة مرداويج بن زيار فرحب بهم وخلع عليهم، فولى على بن بويه بلاد الكرج وهى تقع إلى الجنوب الشرقى من همذان فأظهر كفاءة فى إدارة البلاد، ومال إليه أهلها، وجبى خراجها لمدة سنة، ثم سار جنوبًا إلى أصفهان فاستولى عليها وقد أثارت هذه الانتصارات التى أحرزها على بن بويه مخاوف مرداويج فأرسل جيشًا كبيرًا بقيادة أخيه "وشمكير" فاضطر على بن بويه إلى التراج نحو أرجان التى تبعد 60 فرسخًا عن كل من شيراز والأهواز، ودخل شيراز سنة 322هـ وتمكن أخوه أحمد بن بويه من الاستيلاء على كرمان. ولما بلغ مرداويج ما أحرزه أبناء بويه من انتصارات عول على القضاء عليهم فأنفذ جيشًا إلى الأهواز، وحين بلغ على بن بويه نبأ استيلاء مرداويج عليها عمل على بن بويه على كسب رضاء مرداويج فقلده أرجان "ثم ثار الجند الأتراك على مرداويج وقتلوه سنة 323هـ لتفضيله جند الديالمة عليهم، واطمأن بذلك على بن بويه ولم يعد أمامه إلا القضاء على مناوأة منافسه ياقوت فى شيراز فاتفق مع أبى عبد الله البريدى على طرده منها وألحق به الهزيمة فى أرجان ودانت له بلاد فارس بالطاعة وأرسل على بن بويه يطلب من الخليفة العباس الراضى اعترافه بسلطانه فى فارس فأرسل له الخليفة الخلع بعد أن طلب منه إرسال ثمانية ملايين درهم إلى بغداد وتعهد بدفع مثلها كل عام ولقب على بن بويه باسم عماد الدولة ويقول ابن خلكان: "كان عماد الدولة سبب سعادتهم التامة وانتشار صيتهم، واستولوا على البلاد وملكوا العراقين والأهواز وفارس وساسوا أمور الرعية أحسن سياسة". وفيات الأعيان جـ1 ص364. وكذلك تمكن أخوه ركن الدولة الحسن من الاستيلاء على أصبهان والرى وهمذان واتخذ أبا الفضل بن العميد وزيرًا له، كما نازع أحمد بن بويه «معز الدولة» على بن العباس ولاية كرمان وانتصر عليه ولكنه تركها له استجابة لطلب أخيه على بن بويه سنة 326هـ، واستولى على الأهواز ثم دعاه الخليفة المتقى إلى دخول بغداد حين ساءت العلاقة بينه وبين القائد التركى توزون فسار إليها سنة 332هـ وضرب الخليفة: "ألقابهم على السكة ولقب المستكفى نفسه إمام الحق".. ومن ثم أصبح بنو بويه أصحاب الأمر والنهى فى بغداد.

ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ1 ص56. ابن الأثير: الكامل جـ8 ص119 ـ 120. مسكويه: تجارب الأمم جـ1 ص296. ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص251. السيوطى: تاريخ الخلفاء ص263.

(1) الجهشيارى: كتاب الوزراء ص7.

الجوزى[1] أن معز الدولة وهو أصغر الإخوة الثلاثة وكان حاكمًا على العراق لما لقى أخاه «عماد الدولة» بأرجان سنة 363هـ قبَّل الأرض بين يديه وأبى أن يجلس فى حضرته، كما كان معز الدولة لا يخالف لأخيه ركن الدولة الذى انتقلت إليه الرياسة أمرا[2].

إلا أن سياستهم تجاه الخلفاء العباسيين كانت على النقيض من ذلك تمامًا فقد حذوا حذو الأتراك فى التنكيل بالخليفة والاستهانة به، فقد قام معز الدولة بخلع الخليفة المستكفى بصورة مهينة وهو فى مجلسه والناس وقوف بين يديه[3].

ويذكر مسكويه أن الأمير معز الدولة كان سريع الغضب لا يتورع عن سبِّ وزرائه وأفراد حاشيته أمام الجمع بل كان "يضرب الواحد منهم بالمقرعة[4]".

وحين توفى وزيره «أبو محمد المهلبى» بعد أن تولى الوزارة ثلاث عشرة سنة قام الأمير بمصادرة أمواله وأموال أهله وأصحابه وحاشيته، مما أثار حنق الناس وسخطهم[5].

كما قام ابنه «عز الدولة بختيار» بمصادرة أموال الخليفة «المطيع لله» سنة 362هـ.

واضطره إلى بيع ملابسه وأخذ منه أربعمائة درهم[6]. وقام الأمير بهاء الدولة البويهى بخلع الخليفة الطائع ليأخذ أمواله ويستولى على ممتلكاته[7].

---

(1) المنتظم جـ6 ص341.

(2) ابن الأثير جـ8 ص365 ، 366. ابن خلدون: العبر جـ4 ص931.

(3) يذكر ابن خلدون: العبر جـ4 ص928: "وحضر مع معز الدولة فى قومه وعشيرته وأمر رجلين من نقباء الديلم بالفتك بالخليفة فتقدما ووصلا ليقبلا يد المستكفى ثم جذباه عن سريره وقاداه ماشيا واعتقلاه بداره وذلك فى منتصف أربع وثلاثين فاضطرب الناس وعظم النهب ونهبت دار الخلافة وبايع معز الدولة للفضل بن المقتدر ولقبه المطيع لله.. وأحضر المستكفى وشهد على نفسه بالخلع".

(4) مسكويه: تجارب الأمم ص193 ـ 194.

(5) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص405.

(6) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص30.

(7) يذكر ابن الأثير أن بهاء الدولة دخل على الخليفة "ومعه جمع كثير، فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسى فدخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فجذبه فأنزل عن سريره والخليفة يقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون! وهو يستغيث ولا يلتفت إليه وأخذ ما فى دار الخلافة من الذخائر ونهب الناس بعضهم بعضا". الكامل جـ9 ص27.

وقد بلغ نفوذ أمراء بنى بويه مداه فى عهد عضد الدولة، الذى تمكن من بسط نفوذه على الموصل وديار ربيعة ومضر سنة 377هـ ، وكذلك شمل نفوذه المنطقة الممتدة من بحر قزوين حتى الخليج العربى، وخلع عليه الخليفة العباسى الطائع خلع السلطنة ومنحه اللواء المذهب الخاص بولاية العهد، وأضيف إلى لقبه لقب تاج الملة[1]. وكذلك لقب ابنه «صمصام الدولة» بلقب شمس الملة، ولقب شرف الدولة بن عضد الدولة بلقب شاهنشاه أى ملك الملوك[2]. وهو اللقب الذى تلقب به من بعده «جلال الدولة» فى عهد الخليفة القائم بأمر الله سنة 429هـ[3] .

وقد شارك الأمراء البويهيون الخلفاء العباسيين كافة مظاهر السيادة فأصبح اسمهم منذ عهد عضد الدولة (367 ـ 372هـ) يذكر مع الخليفة فى خطبة الجمعة بالإضافة إلى نقش اسمهم على السكة مضافًا إليهم ألقابهم مع اسم[4] الخليفة، كما كانت تقام المآدب أمام دورهم كما حدث فى عهد عضد الدولة حيث أقيمت المآدب ثلاث مرات يوميًا فى الصباح والمغرب والعشاء[5]، وأمام دار جلال الدولة من بعده خمس مرات يوميًا، وهذه الأمور كانت مقصورة على الخلفاء العباسيين وحدهم ولم تطلق لولاة العهود قبل سيطرة الأمراء البويهيين على بغداد[6]، كما كان الخلفاء يقومون بالخروج لاستقبالهم احترامًا لهم[7] ، كما كانوا يشاطرونهم الأحزان[8] ويحضرون مآتمهم.

---

(1) هلال بن الصابئ: رسوم دار الخلافة ص131 ، 132. ويصف ابن خلدون عضد الدولة بقوله: "كان عضد الدولة بعيد الهمة شديد الهيبة حسن السياسة ثاقب الرأى محبا للفضائل وأهلها وكان كثير الصدقة والمعروف".
العبر جـ4 ص974.
(2) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص27.
(3) ابن الأثير: الكامل جـ9 ص158. السيوطى: تاريخ الخلفاء ص270.
(4) ابن الجوزى: المنتظم جـ6 ص340. ابن طباطبا: الفخرى ص389.
(5) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص298. ابن خلدون: العبر جـ4 ص970. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص132ـ 142. ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص65.
(6) ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص65.
(7) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص295.
(8) ابن الأثير: الكامل جـ9 ص13.

وقد عاش الأمراء البويهيون فى سعة من العيش ويدل على ذلك حياة الترف التى نعموا بها. فقد بنى «معز الدولة» لنفسه دارًا فى شمال بغداد كلفته ثلاثة عشر مليون درهم[1].

كما يذكر المقدسى أن الأمير عضد الدولة البويهى كان مترفا فى حياته فقد اتخذ لنفسه قصرًا فى شيراز بلغ عدد حجراته ثلاثمائة وستين حجرة، وكان الأمير يجلس فى كل يوم فى إحدى هذه الحجرات كما أنشأ به بستانًا بلغ جملة ما كان ينفق عليه خمسة ملايين درهم[2]. كما أنشأ عدة مساجد وخانات لإقامة الغرباء والفقراء. كما كان ينفق على الأيتام والضعفاء[3].

وقد ارتبط أمراء بنو بويه برباط المصاهرة مع الخلفاء العباسيين، ففى سنة 369هـ ، حين تحسنت العلاقة بين الخليفة العباسى «الطائع لله» وبين «عضد الدولة» تزوج عضد الدولة من ابنة الطائع، كما تزوج الطائع ابنة عضد الدولة على صداق قدره مائة ألف دينار، وكان الأمير البويهى يهدف بذلك أن تلد ابنته ولدًا يجعله وليًا للعهد فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب[4].

وكانت سياسة الأمراء البويهيين تجاه العامة تتسم بالظلم، فقد أرهقوهم بالضرائب، فيذكر أبو المحاسن[5] أن بهاء الدولة كان ظالمًا غشومًا سفاكًا للدماء جمع من المال ما لم يجمعه أحد من بنى بويه إلا عمه فخر الدولة، ولم يكن فى ملوك بنى بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة".

كما كان معز الدولة من قبل لا يأبه لحقوق رعيته؛ فكان يستخرج الأموال من غير وجهها، كما أقطع قواده وخواصه وأتراكه ضياع الخليفة وغيرها، وكان يسامح الوزراء

---

(1) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص183.
(2) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص449.
(3) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص114. ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص299.
(4) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص135.
(5) المصدر السابق جـ4 ص223.

المقطعين ويقبل منهم الرشى.... حتى صار الرسم جاريا بأن يخرب الجند إقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها بما يختارون، ورقت أحوال الرعية فمن هارب جالٍ إلى مظلوم صابر إلى مستريح لتسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره وبوائقه، وقل حفل الناظرين فى الأعمال تعويلا على أخذ ما صفا وترك ما كدر والرجوع على السلطان بالمطالبة، وفوض معز الدولة تدبير كل ناحية إلى بعض الوجوه من خواص الديلم فاتخذوها مسكنًا وطعمة، والتحف عليهم المتصرفون الخونة، فبطلت العمارة وخربت البلاد واعتاض العمال عما يذهب من أموالهم بالمصادرة والحيف على الرعية، وانصرف عمال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان"[1].

ورغم ذلك كان معز الدولة يهتم بإصلاح الجسور بل كان يقوم بذلك بنفسه فيروى مسكويه أنه خرج بنفسه لذلك وحمل التراب فى طرف قبائه فقلده جميع العسكر، فعمرت الأرض بعد خرابها[2].

كما كان عضد الدولة "كثير الصدقة والمعروف، يدفع المال لذلك إلى القضاة ليصرفوه فى وجوهه، وكان محبًا للعلم وأهله مقربًا لهم محسنًا إليهم يجلس معهم ويناظرهم فى المسائل، فقصده العلماء من كل بلد"[3].

وقد وصفه مسكويه بقوله: "فلولا خلال كانت فى عضد الدولة يسيرة لا أستحسن ذكرها مع كثرة فضائله لبلغ من الدنيا مناه ورجوت له من الآخرة رضاه"[4].

وكانت عيوب سياسة عضد الدولة تتلخص فى تلك الرسوم الجائرة التى استحدثها وفى نظام احتكار الدولة لبعض السلع بغية الحصول على المال بكافة الطرق. فاستحدث المكوس على المبيعات ومنع من الاحتراف ببعضها وجعله متجرًا للدولة"[5].

---

(1) مسكويه: تجارب الأمم جـ6 ص135 ـ 138.
(2) المصدر السابق ص218 ـ 219.
(3) ابن خلدون: العبر جـ4 ص974. ابن الأثير: الكامل جـ8 ص518.
(4) مسكويه جـ6 ص511.
(5) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص518. ابن خلدون: العبر جـ4 ص984.

ويذكر ابن الجوزى أنه لم يخرج بيت بنى بويه بعد عضد الدولة أمراء يصلحون للحكم، واضمحلت مواردهم المالية من بعده واختلت دولتهم أيام جلال الدولة[1].

2 ـ طبقة العلماء والتجار والصناع وأرباب الحرف والفلاحين

أولاً: طبقة العلماء

وتشمل هذه الطائفة المعممين من أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والأدباء والكتاب وقد حظيت باحترام الخلفاء والأمراء، وتولوا الوظائف العليا فى الدولة[2].

وقد أنعم عليهم الخلفاء والأمراء بالخلع اعترافًا بمنزلتهم[3]. فيذكر ابن خلدون[4] أن عضد الدولة كان "محبًا للعلم وأهله مقربًا لهم محسنًا إليهم ويجلس معهم ويناظرهم فى المسائل، فقصده العلماء من كل بلد، وصنفت الكتب باسمه كالإيضاح فى النحو، والحجة فى القراءات والملكى فى الطب، والتآخى فى التواريخ".

فقد كان البلاط البويهى أحد المراكز الثقافية الإسلامية التى ازدهرت فى القرن الرابع الهجرى، وكان للحكام المسلمين ولع شديد بالعلم، فكانت بغداد أحد هذه المراكز الثقافية فى المشرق، وكان فى كل جامع كبير مكتبة إذ كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجوامع[5].

وقد عاش العلماء المقربون من الخلفاء والأمراء عيشة مترفة، فقد وصف الثعالبى[6]

---

(1) ابن الجوزى: المنتظم ص184.
(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ1 ص426.
(3) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص267، مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص196.
(4) ابن خلدون: العبر جـ4 ص974.
ويذكر ابن خلكان أن «أبا سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى» المتوفى سنة 368هـ، كان من أكثر علماء بغداد ثقافة فى علوم القرآن والنحو واللغة والفقه وقد تتلمذ على يديه كثيرون من بينهم «أبو حيان التوحيدى» الذى روى عنه فى كتابه "الإمتاع والمؤانسة" بعض علماء فى اللغة والنحو. وفيات الأعيان جـ1 ص421.
(5) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ1 ص55.
(6) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص222 ـ 223.

أحد مشاهير رجال الأدب فى العراق فى هذه الفترة وهو «الصاحب إسماعيل بن عباد» وزير «فخر الدولة البويهى» بقوله:

"هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان، وينبوع العدل والإحسان. وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء، وحضرته محط رحالهم، وموسم فضائلهم.. وأمواله مصروفة إليهم، وسار كلامه مسير الشمس، واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربو عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى". كما ذكر ابن خلكان[1] أنه "اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره".

وقد ارتفع شأن العلماء فى ذلك العصر لنهوض علم الكلام وهو العلم الخاص بالبحث فى أمور العقيدة الإسلامية، بعد أن تخلص من قيود علم الفقه، واستخدم مقاييس العلم والمنطق فى معرض الجدل[2].

---

(1) وفيات الأعيان جـ1 ص7 . كما يذكر أن من أهم مؤلفاته كتاب المحيط، وكتاب الكافى فى الرسائل، وكتاب الأعياد وفضائل النيروز، وكتاب الإمامة وكتاب الوزراء، وكتاب الكشف عن مساوئ شعر المتنبى وكتاب عنوان المعارف فى التاريخ. كما يذكر أنه اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره، وكان بمكتبته الكثير من المصنفات حتى إنه اعتذر لنوح بن منصور السامانى حين طلب إليه الحضور ليوليه وزارته وقال له: «كيف يحسن لى مفارقة قوم بهم ارتفع قدرى وشاع بين الأنام ذكرى، ثم كيف لى بحمل أموالى مع كثرة أثقالى؟ وعندى من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر".

ياقوت: معجم الأدباء جـ6 ص295. ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ1 ص94.

(2) المطهر المقدسى: البدء والتاريخ جـ1 ص4.

وقد ذكر "يأبى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لمتجرد له بكليته، ومتوفر عليه بأنيته، معان له بالقريحة الثاقبة والروية الصافية، مقترنا به التأييد والتسديد، قد شمر ذيله، وأسهر ليله، حليف النصب، ضجيع التعب، يأخذ مأخذه متدرجا، ويتلقاه متطرفا، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام، ولا يخبط فيه خبط العشواء فى الظلام ومعه هجران عادة الشر، والنزوع عن نزاع الطبع، ومجانبة الإلف، ونبذ المماطلة واللجاجة، وإجالة الرأى عند غموض الحق، والتأنى بلطيف المأتى، وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتضح، والتفريق بين التمويه والتحقيق والوقوف عند مبلغ العقول فعند ذلك إصابة المراد، ومصادفة المرتاد".

كما اشتهر من مؤرخى العصر البويهى ثلاثة هم «مسكويه»[1] المتوفى سنة 421هـ و«هلال الصابى» المتوفى سنة 448هـ ، و«أبو شجاع» المتوفى سنة 488هـ . وقد تناول مسكويه الفترة التاريخية التالية لما أرخه الطبرى كما اهتم بالنواحى الاجتماعية والاقتصادية خاصة فى تاريخ الفترة المبكرة من حكم البويهيين. وقد أكمل «ظهير الدين محمد بن الحسين الروذاوردى» المعروف بأبى شجاع تاريخ مسكويه بتأريخ الفترة من سنة 369 إلى 389هـ ثم أكمل هلال الصابى هذه الفترة فأرخ إلى سنة 393هـ [2].

وقد كان هؤلاء العلماء المؤرخون على صلة وثيقة بالأمراء فيذكر أبو شجاع عن عضد الدولة: "فأما محبته للعلوم وتقريب أهلها فإنه كان يكرم أهلها أوفى إكرام، ويهنأ عليهم أهنأ إنعام، ويقربهم من حضرته، ويدنيهم من خدمته، ويعارضهم فى أجناس المسائل، ويفاوضهم فى أنواع الفضائل، واجتمع عنده من كل طبقة أعلاها".

كما حظى القاضى «التنوخى» وهو من أعيان أهل العلم والأدب ـ وكان يتقلد قضاء البصرة والأهواز ـ بعطف «الوزير المهلبى» وغيره من الوزراء[3].

ومن الشعراء من اتصل بالأمراء كابن السلامى المتوفى سنة 392هـ وكان ممن مدحهم ابن السلامى واتصل بهم الأمير عضد الدولة[4].

ومن مظاهر احترام الأمراء للعلماء وإكرامهم: الصلاة خلفهم عند إقامتها، والأخذ برأيهم والثناء عليهم، والملاطفة أثناء الحديث معهم حتى ولو اختلفوا معهم فى الرأى ويذكر «ابن الجوزى» أن «أبا الحسن الماوردى» المتوفى سنة 450هـ ـ وهو من أكبر علماء عصره ـ عارض الأمير «جلال الدولة» سنة 435هـ حين تلقب الأمير بلقب "ملك

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ2 ص202 ـ 203.
(2) ذيل تجارب الأمم ص68.
(3) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص309.
(4) ابن الأثير: الكامل جـ9 ص127.

الملوك" وامتنع عن الخروج والجلوس بحضرته مدة طويلة، ثم ما لبث جلال الدولة أن استدعاه ولاطفه فى القول وأيده فى رأيه واستحسن موقفه[1].

وكان لا يشـــفع للكاتب أو العالم سابق خدمته أو براعة قلمه وعلو منزلته فقد تعرض «أبو بكر الرازى» سنة 367هـ إلى إهانة عز الدولة بختيار حين جاء فى وفد من العلماء يستنفر للجهاد فقال له: "أيظن هذا الشيخ أبو بكر الرازى أننى غير عالم بنفاقه، ولا عارف بما يشتمل عليه من خيره وشره، يلقانى بوجه صلب، ولسان هدار، يرى من نفسه أنه الحسن البصرى يعظ الحجاج بن يوسف، أو واصل بن عطاء يأمر بالمعروف"[2].

كما لحق «أبو إسحاق الصابى» أذى عضد الدولة، وكان هذا الأمير قد كلفه بتأليف كتاب فى أخبار الدولة البويهية فامتثل الصابى[3] أمره واهتم بالتأليف، حتى أوصل الأمير البويهى أحد الوشاة ما نقله عن الصابى عندما سأله وهو مستغرق فى تأليف التاج عما يفعله فأجاب: "أباطيل أُنمِّقُها، وأكاذيب ألفقها فتأثر عضد الدولة وغضب على الصابى وأمر بأن يلقى تحت أرجل الفيلة لسحقه، ولما شفع فيه الكثيرون أمر "بالقبض عليه وعلى أمواله واستئصال كافة ممتلكاته[4]".

وهناك من العلماء من لم يتصل بالخلفاء والأمراء واضطرتهم ظروف العيش إلى

---

(1) ابن الجوزى: المنتظم جـ8 ص97، كان عضد الدولة المتوفى سنة 372هـ أول من لقب بشاهنشاه؛ أى ملك الملوك واستمر اللقب لمن جاء بعده من ملوك بنى بويه. الجهشيارى كتاب الوزراء ص388. ياقوت: معجم الأدباء جـ2 ص120.

(2) أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة جـ3 ص158.

(3) يذكر الثعالبى أنه وصل إلى سمع عضد الدولة أن صديقًا لأبى إسحاق الصابى دخل عليه يوما فرآه فى شغل شاغل من التسويد والتبديل والتبييض فسأله عما يفعل فقال: "أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها". فأمر عضد الدولة بأن يلقى تحت أرجل الفيلة فاستشفع فيه بعض أصدقائه فأمر عضد الدولة بالقبض عليه وعلى أشيائه واستئصال أمواله فبقى فى ذلك الاعتقال بضع سنين وقد وصفه الثعالبى بأنه "أوحد العراق فى البلاغة، ومن به تثنى الخناجر فى الكتابة".
يتيمة الدهر جـ2 ص221 ، 222.

(4) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص221.

اكتساب قوتهم بعمل أيديهم أمثال «أبى الحسن على بن المرزبان» الفقيه الشافعى الذى توفى سنة 366هـ وكان من جملة علماء بغداد[1]. ومنهم من كان يشتغل بالتجارة كالفقيه «أبى الحسن البغدادى الحنفى»[2] المتوفى سنة 420هـ الذى جمع مالا "كثيرًا غير أن أمواله صودرت حتى أصابه الفقر والبؤس ومات ولم يكفن حتى أرسل الخليفة إليه كفنًا فستروه".

ومنهم من باع الفاكهة كعلى بن عيسى المعروف بالرمَّانى[3] وكان «أبو الحسن الكندى» الشاعر المتوفى سنة 362هـ رفاء وفى ذلك يقول[4]:

وكانتِ الإبـرَةُ فيمـا مـضَى صـائنةً وجهـى وأشـعارى

فأصـبح الـرزقُ بهـا ضـيّقًا كأنـه مـن ثُقبهـا جـارى

واشتغل البعض الآخر بالوراقة وبيع الكتب كأبى سعيد السيرافى المتوفى سنة 368هـ، وكان أبوه مجوسيًا وأسلم، وكان ورعًا نزيهًا عفيفًا "يأكل من نسخ يده ينسخ الكراس بعشرة دراهم لجمال خطه ومن أجرته تكون نفقته"[5].

وكثيرًا ما كانت ألقابهم تدل على طبيعة عملهم أمثال «أبى منصور الثعالبى» المتوفى سنة 429هـ الذى كان فراء يخيط جلود الثعالب[6]، و«أبى نصبر بن أحمد الخبز أرزى» الذى كانت حرفته خبز الأرز فى دكانه بمربد البصرة، فكان يخبز وينشد أشعاره خاصة فى الغزل، والناس يزدحمون عليه ويتعجبون من حاله، وكان الشباب يتنافسون فى استمالته إليهم وذكره لهم[7].

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ2 ص443.
(2) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص270.
(3) ابن كثير: البداية والنهاية حـ11 ص314.
(4) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص364 ـ 368. ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص296. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص67.
(5) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص303. ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص65.
(6) ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص246، 247.
(7) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ4 ص4.

على أن هناك مجموعة من أقطاب العلماء وأفذاذ الأدباء عاشوا فى فقر شديد، فلم يجدوا ما يسد رمقهم ويحفظ وقارهم، فتركوا بغداد وهاجروا منها إلى بلاد أخرى فرارًا من البؤس والفاقة والعوز وقد عبر عن ذلك القاضى «أبو محمد عبد الوهاب» البغدادى الفقيه الأديب الشاعر المتوفى سنة 422هـ ، حينما خرج مهاجرًا من بغداد إلى مصر فقال لمودعيه: "لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية" ثم قال[1]:

سلام على بغداد فى كل موطن ... وحق لها منى سلام مضاعف

فو الله ما فارقتها عن قلى لها ... وإنى بشطى جانبيها لعارف

ولكنها ضاقت علىَّ بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكانت كخلٍّ كنت أهوى دنوه ... وأخلاقه تنأى بى وتخالف

ومن أمثال هذا الشاعر كثيرون، فمنهم من عاش فقيرًا متمسكًا بالورع والزهد، يصوم الدهر ويفطر على الخبز والملح ويتظاهر بالغنى[2]، ومنهم من عجز عن دفع أجرة مسكنه، فأبو حيان التوحيدى المتوفى سنة 400هـ ، رغم علمه الواسع وأدبه الفياض وفلسفته وبلاغته، واتصاله بالوزراء وكده فى الحياة بالوراقة ونسخ الكتب يذكر عن نفسه: "لقد اضطررت بعد العشرة الطويلة، والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة وإلى بيع المروءة وإلى تعاطى الرياء والنفاق وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم"[3].

كما يروى ما شاهده بقوله: "شاهدنا شيخًا من أهل العلم ساءت حاله وضاق رزقه واشتد نفور الناس منه، ومقت معارفه له، فلما توالى عليه هذا، دخل يومًا منزله ومد حبلا إلى سقف البيت واختنق به"[4].

---

(1) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص337.
(2) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص279.
(3) أبو حيان: الإمتاع جـ1 ص31.
(4) المصدر السابق: جـ1 ص32.

ولذلك لجأ كثير من العلماء والأدباء إلى التجارة واحترفوها مهنة[1] تدر الربح الوفير فيذكر «أبو حيان التوحيدى» عن «ابن زرعة»[2] أحد علماء عصره: "لولا توزع فكره فى التجارة، ومحبته للربح، وحرصه على الجمع، وشدته على المنع، لكانت قريحته تستجيب له".

وكان من بين العلماء من تقلد مناصب القضاء غير أن مرتباتهم خلال العهد البويهى كانت منخفضة؛ فكان راتب القاضى «التنوخى» سنة 447هـ ستين دينارًا شهريًا[3].

وكان موظفو ديوان قاضى القضاة ببغداد سنة 336هـ[4] وهم: الكاتب والحاجب وعارض الأحكام يتقاضون مرتبات تبدأ بثلاثمائة درهم شهريًا وهو راتب الكاتب، ثم مائة وخمسون درهمًا وهو راتب الحاجب، فمائة درهم شهريًا وهو راتب عارض الأحكام.

كما انخفضت رواتب الموظفين المدنيين فى العهد البويهى، فقد تقاضى «أبو الفتح الفضل بن جعفر» عن رياسته لديوان المشرق مائة دينار شهريًا[5].

وحين تعجز الحكومة عن دفع المرتبات لموظفيها كانت تلجأ إلى منحهم الإقطاعات ليكون ريعها السنوى بديلا عن دفع المرتبات لهم[6].

كما فرض الوزير «الحسين بن أحمد» سنة 373هـ ، ضريبة على إيرادات بعض كبار الموظفين فيذكر «أبو شجاع» أنه "أحدث من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتاب من أموالهم وأرزاقهم[7]".

---

(1) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص270.
(2) أبو حيان التوحيدى: الإمتاع جـ1 ص33.
(3) ياقوت: معجم الأدباء جـ14 ص467.
(4) الكندى: الولاة والقضاة ص574.
ويذكر ابن الجوزى أنه فى سنة 334هـ دخل اللصوص على أحد قضاة بغداد وأخذوا ما كان بمنزله، ولم يكن شيئًا يذكر لأنه كان فقيرًا ثم ضربوه ليستخرجوا ما معه، فهرب منهم وألقى بنفسه من أعلى داره فسقط فمات". المنتظم ص75.
(5) الصابى: تحفة الأمراء ص340.
(6) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص346.
(7) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ص85.

ثانيًا: طبقة التجار

ازدهرت التجارة فى العراق فى القرن الرابع الهجرى، وكانت بغداد أهم مراكز الدولة العباسية التجارية[1]. حين دخل البويهيون بغداد حاولوا تنشيط التجارة، وتذليل العقبات والصعاب التى تعترضها بضبط الأمن ومراقبة التجارة، والحد من جشع التجار، والضرب على أيدى المتلاعبين بالأسعار والمحتكرين للمواد الغذائية[2].

وكانت التجارة فى العراق تدر أرباحًا كثيرة[3] على المشتغلين بها وقد تجمعت ثروات كبيرة لدى بعض التجار نتيجة لما يحصلون عليه من أرباح، فلقد بلغت ثروة أحد تجار مدينة البصرة ما يقرب من عشرين ألف دينار، وكان لدى أحد تجار بغداد ثمانون ألف دينار فائضة عن حاجته[4]. ولذلك اتجهت أنظار الأمراء ورجال الدولة إلى الاقتراض من التجار فى أوقات الأزمات المالية، وعند تأخر جباية الخراج، فكان الوزير «على بن عيسى» يقترض من التجار كلما تعرضت خزانة الدولة لضائقة مالية، ويعطيهم لقاء ذلك سفاتج[5] تصرف حين يحل موعدها ضمانًا للدين.

---

(1) Heyd: Histoire du commerce de Ievent au Moyen age:Tame1.P.26 - 28.

(2) يذكر أبو شجاع أن الوزير «محمد بن الحسن بن صالحان» حين شكا له الناس سوء الحالة وارتفاع الأسعار "رتب نقل الغلات من بلاد فارس فى البحر وجد فى حملها من كل بلد". ذيل تجارب الأمم ص137.

(3) شجعت هذه الأرباح على اشتغال بعض الأمراء البويهيين بالتجارة فكان للأمير «شرف الدولة البويهى» تجارات بنيسابور "تقبل توقيعاته عليها فى المعاملات".
أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ص138.
Hitti: History of the Arabs P. 344-345.

(4) التنوخى: مشوار المحاضرة جـ8 ص57.

(5) كلمة فارسية معناها خطاب ضمان وهى محررات يكتبها التجار أو الصيارفة أو المشتغلين بالأعمال المالية والتجارية بقيمة المبالغ التى يأخذونها تكون قابلة للصرف فى أى بلد لأى من عملائهم، وكانت كل سفتجة توقع أو تختم من صاحبها لصراف أو تاجر حتى تكون صالحة للتداول. ناصر خسرو: سفر نامة ص96. مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص83.

وكان التجار يرفضون إقراض الحكومة فى بعض الأحيان خاصة إذا كان الوزير المقترض غير أمين فى المعاملات المالية الخاصة بالقروض. كما حدث للوزير «أبى جعفر بن شيرزاد»[1] سنة 332 ـ 334هـ ، حيث رفض التجار إقراضه لأنه أساء معاملتهم وصادر أموال بعضهم.

وكان التجار عادة يأخذون فوائد على ما يقرضونه للحكومة[2].

وعلى الرغم من المحاولات التى بذلها بعض الأمراء البويهيين ووزرائهم، لإنعاش التجارة فإن عدم توافر الأمن الداخلى والاستقرار السياسى كان لهما أثر بالغ فى عرقلة

---

(1) الصولى: أخبار الراضى والمتقى ص250، كانت أسواق مدينة بغداد أهم مركز للتجارة الداخلية فى العراق وكان أعظمها يقع فى الكرخ، ولم تقتصر الأسواق على الجانب الغربى وحده بل أقيمت فى جانبها الشرقى أيضًا فيذكر اليعقوبى: "وسوق هذا الجانب العظمى التى تجتمع فيها أصناف التجارات والبياعات والصناعات على رأس الجسر مارًا من رأس الجسر شرقًا ذات اليمين وذات الشمال من أصناف التجارات والصناعات". وكانت كل طائفة من التجار تقيم فى قسم معين، فيذكر اليعقوبى أنه كان: "لكل تاجر وتجارة شوارع معلومة، وصفوف فى تلك الشوارع وحوانيت؛ ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم، وكل سوق مفردة، وكل أهل منفردون بتجارتهم، وكل أهل مهنة معتزلون غير طبقتهم". البلدان ص14 ـ 20. كما كان لكل سوق عامل يشرف عليه يسمى باسم السوق المختص بالإشراف عليه. الصابى: تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص176. الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ1 ص90. الثعالبى: ثمار القلوب ص411.
كذلك وصف الجاحظ أسواق البصرة أنها "باب بغداد الكبير وتدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا، ومحط رجال الشرق والغرب، من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى". التبصر بالتجارة ص3. ومن أشهر أسواق البصرة المربد وهو مركز للتجارة الداخلية ويقع عند باب البصرة الغربى على طرف البادية سماه الناس عكاظ الإسلام، كلمة المربد تعنى المكان الذى يربط فيه الإبل ويجمع فيه التمر. ياقوت: معجم البلدان جـ4 ص484. الثعالبى: ثمار القلوب ص128. ويعتبر تجار البصرة أنشط التجار عامة فيذكر «ابن الفقيه» أن "أبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وحميرى... ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلابد أن يرى فيها بصريا أو حميريا". مختصر البلدان ص51.

(2) الصابى: تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص93.

النشاط التجارى، خلال فترات الفتن والاضطرابات حيث تسلط "العيارون"[1] الذين ازدادت أعدادهم بمرور الأيام وضعف الحكومات، حتى أصبح وجودهم ظاهرة فرضت نفسها على المجتمع العراقى، وعرفت لأصحابها صفات مميزة بأقوالهم وأفعالهم واستمرت هذه الفئة تؤكد وجودها فى فترات الاضطراب السياسى والتدهور الاقتصادى[2]. وقد أشار إلى ذلك «المقدسى» سنة 375هـ حين قال إنهم "إذا تحركوا ببغداد أهلكوا"[3]. كما سنبين فيما بعد.

فكان ينشب القتال بين هؤلاء العيارين والتجار فى الأسواق[4] والدروب.

وكان التجار يلجأون إلى ادعاء الفقر والعوز، وبالغوا فى الاقتصاد والتقشف كوسيلة من التمويه وصرف الأنظار عنهم لتجنب المصادرات التى أصبحت ظاهرة واضحة طوال العصر البويهى كوسيلة لابتزاز الأموال بالقوة، وكذلك خشية اللصول والعيارين[5].

وقد أشار أبو شجاع[6] إلى عبث اللصوص وقطاع الطرق فى العصر البويهى فقال: "إن عضد الدولة أنفذ أحماله من الأمتعة إلى مكة مع تجار أو حجاج، فلما انتهوا إلى بعض الطريق خرج عليهم قوم منهم فقطعوا عليهم".

ولذلك حرص البويهيون على حماية الطرق التجارية فى العراق من عبث المفسدين

---

(1) العيار فى اللغة الرجل كثير الحركة، وجاء فى القاموس المحيط للفيروز آبادى: العيار الكثير المجىء والذهاب. جـ2 ص98. والعرب تمدح بالعيار وتذم به يقال فلان عيار أى نشيط فى المعاصى وفلان عيار نشيط فى طاعة الله عز وجل. الزبيدى: تاج العروس جـ3 ص434. وقد اختلفت كتب التاريخ فيما أطلقته على العيارين والشطار فسموهم "الرعاع والطرادون" . كما أشار إلى ذلك ابن الجوزى فى وصفه لمن يأخذون أموال الناس فسماهم العيارين والفتيان. أخبار الظراف ص46.

(2) المسعودى: مروج الذهب جـ8 ص964.

(3) المقدسى: أحسن التقاسيم ص130.

(4) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص107، 278. مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص328.

(5) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص107.

(6) ذيل تجارب الأمم ص57.

فعينوا حراسًا[1] يتناوبون العمل ليلا ونهارًا وبذلوا لهم العطاء بسخاء وطالبوهم بتتبع المفسدين وأهل الريب، فقد خص عضد الدولة "ولاته بالأموال الكثيرة لحراسة الطرق وخفارتها"[2].

كما فرضت الحكومة البويهية الرقابة على التجار لمنع احتكار السلع[3]. كما كانت تتدخل لمنع التجار من رفع أسعار السلع[4]، بل أشرفت الحكومة إشرافًا دقيقًا على تجارة القمح والشعير.

وقد ظلت حالة التجار فى العصر البويهى تتقلب تارة بين الركود والانتعاش تبعًا لظروف التجارة نفسها، وانعكاس الأوضاع السياسية عليها هدوءا واضطرابا، وقد قضى التغلب البويهى على كثير من مظاهر البذخ والترف التى كانت تسود البلاط العباسى، فقلَّتْ أرباح التجار الذين كانوا يزودون قصور الخلفاء وكبار رجال الدولة بمتاجرهم، ولم يجدوا ما يشجعهم على البقاء فى بغداد، فرحلوا عنها إلى الشام وغيرها من الولايات الإسلامية.

ثالثًا: طبقة الصناع وأرباب الحرف

كانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات والحرف تتجمع فى مكان واحد يسمى[5]

---

(1) رسائل أبى اسحاق الصابى: ص134 ـ 136.

(2) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ص54.

(3) لم تسمح الحكومة البويهية لأحد من التجار أن يحتكر بيع أى صنف من البضائع، بينما احتكرت الحكومة أصنافًا معينة من البضائع كمنسوجات الخاصة (الطراز) كما زاد عضد الدولة أصنافًا أخرى فرض عليها احتكار الدولة منها تجارة القز. الصابى: رسائل الصابى جـ1 ص143. أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ص71.

(4) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص34، 35.

(5) يذكر الخطيب البغدادى أن "المنصور لما عزم على بناء بغداد أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذراع والمساحة ثم أحضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم، من المناطق المجاورة كالكوفة والبصرة وواسط وغيرها حتى تكامل بحضرته من أهل المهن والصناعات ألوف كثيرة". الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ1 ص66 ، 67.

باسمها، ومن هذه الطوائف طائفة: النساجين[1] والبنائين والحلاجين والحدادين والوراقين... إلخ. وضاع دور الطراز[2] التى تعددت فى العراق فى العصر البويهى. ورغم وجود هذه التجمعات الحرفية إلا أن ذلك لا يقف دليلا على وجود نقابة خاصة لكل طائفة من هذه الطوائف. وإن كانوا يكونون جبهة[3] واحدة أمام أى خطر يتعرضون له. كما كان هناك تنظيم متدرج عند أهل الحرف والصناعات، فهناك شيخ الطائفة، وهو رئيس الجماعة وينتخبه الأساتذة من بين كبار رجال الحرفة، وبعد انتخابه يصبح حاكم

---

(1) اشتهرت بغداد بصناعة أنواع من الأقمشة والثياب كانت على درجة كبيرة من الدقة والمتانة، منها الثياب العتابية وهى مصنوعة من الحرير والقطن بألوان مختلفة. ويذكر الإصطخرى: "ويرتفع من أصبهان من العتابى والوشى وسائر الثياب وكانت تصنع الثياب التسترية نسبة إلى محلة التستريون فى الجانب الغربى من بغداد بين دجلة وباب البصرة، وصنعت ثياب الملحم الذى اشتهرت به بغداد فكان سداها من الحرير ولحمتها من القطن... واشتهر فى بغداد نوع من القماش الفاخر عرف بالبغدادى". المسالك والممالك ص117.

وكانت محلة العتابية فى بغداد تصنع هذا النوع من القماش فنسب إليها. ابن جبير: ص201.

Pope: Survay of Persian Art Vol 3, P. 119.

(2) الطراز: لفظ فارسى مشتق من كلمة "ترازيدان"، وكان يعنى فى أول أمره الكتابة الزخرفية التى توجد على الأقمشة ثم اتسع مدلوله وأصبح يستعمل للكتابة على الورق والنسيج وعن المكان الذى تصنع فيه المنسوجات، وكانت الملابس التى عليها طراز توصف بأنها معلمة أو عليها علامة، يتضح ذلك مما ذكره ابن عبد ربه: "قال هشام بن الحسن رأيت على حسن البصرى قميصًا بحافته علامة". العقد الفريد جـ1 ص153.

وقد أنشأ البويهيون دورًا للطراز منها طراز الخاصة حيث كانت تصنع به المنسوجات للخليفة، والأقمشة التى كان يخلعها على كبار رجال الدولة وأفراد حاشيته أما دور طراز العامة كانت تصنع المنسوجات والثياب لعامة الناس. وكان أشهر دور الطراز فى العراق دار الطراز فى بغداد، فضلا عن دور الطراز فى البصرة وغيرها من مدن العراق، وكان يطلق على رئيس كل دار من هذه الدور صاحب ديوان الطراز.

Combe. E. T, J. Sauvaget: Repertoire Chronologique

d Epigraphie Arabes Vol I P. 35.

Ency. Of Islam Vol: IV: P. 790.

(3) برنارد لويس: النقابات الإسلامية ـ مجلة الرسالة عدد 356 ص 736 ، 737.

الطائفة المطاع، فيجمع وظائف الرئيس وأمين الصندوق والكاتب، وله مساعد يقوم بتنفيذ أوامر الشيخ، ويليه المسنون من بين أساتذة الطائفة يتعاونون معه فى إدارة شئون الطائفة ثم يأتى بعدهم الأساتذة ويدعى الواحد منهم "أسطى" أو "معلمًا" وهم يشكلون القسم الرئيس من الطائفة. ويرقى المبتدئ إلى معلم بعد أن يكون قد تدرب على الحرفة أو الصناعة. وكانت المهن عادة وراثية، فكل ذى حرفة يفضلها على غيرها من الحرف وكان لكل أرباب حرفة زيهم الخاص بهم[1].

ومن الملاحظ أن الانتساب إلى المهنة شاع فى ألقاب الناس خلال العصر البويهى، بجانب النسبة إلى المدينة أو القبيلة؛ فالثعالبى[2] لقب كاتب ومؤرخ مشهور من مؤرخى العصر البويهى هو «أبو منصور عبد الملك» المتوفى سنة 429هـ . والرفاء لقب شاعر مشهور ترك حرفته واتصل بالأمراء والوزراء ومدحهم بروائع شعره[3].

على أن الوضع الاجتماعى لأصحاب الحرف كان سيِّئًا إلى حد ما، ويبدو أن مواردهم[4] المالية كانت تكاد تكفى ضروريات عيشهم خاصة أثناء اشتعال الفتن واضطراب الأمن[5].

رابعًا: طبقة الفلاحين

وهم السواد الأعظم من أهل العراق، ويمثلون غالبية السكان ويسكنون القرى والنواحى، وهؤلاء كانوا أول الأمر بالدرجة الأولى من النبط[6] الذين أسلموا واستقر

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء جـ2 ص55.
(2) ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص246 ،247.
(3) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص67.
(4) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص264 ـ 268.
(5) يحيى بن سعيد الأنطاكى: صلة التاريخ المجموع جـ2 ص140.
(6) ورد لفظ النبط فى المعاجم العربية فجاء فى تاج العروس جـ5 ص229 : أنهم جيل من العجم ينزل البطائح بين العراقين، سموا بذلك لكثرة النبط عندهم وهو الماء، ثم استعمل هذا اللفظ فى عوام الناس وأخلاطهم. القاموس المحيط جـ2 ص378. لسان العرب جـ9 ص288 ، 289.

بينهم بعض البدو من العرب[1]، ولكن كلمة نبط بقيت تطلق على عامة فلاحى السواد الذين لم يعملوا بالرعى أو الجندية.

وقد ظل الفلاح خلال العصر البويهى يعمل فى الأرض دون أن يهنأ بخيراتها، فقد كانت غالبية الأرض مملوكة أو مقطعة لكبار رجال الدولة من القواد والكتاب[2]، الذين اهتموا بجمع المال ومحاسبة الوكلاء والجباة حرصًا على الدخل دون الاهتمام بحالة الفلاح أو محاولة رفع مستواه، بل إن أصحاب الإقطاعات[3] من القواد والأمراء كثيرًا ما ردوا إقطاعاتهم التى خربت وعوضوا عنها، جريًا وراء المال فخربت الأراضى وتحمل الفلاح وحده الخسارة[4].

ويذكر مسكويه أنَّ أحد المزارعين تظلَّم إلى عضد الدولة من أحد عماله ويدعى «أسفار ابن كرويه» فكتب إليه يأمره بإنصافه[5]. ولم يهتم البويهيون بالإشراف الدقيق على ما

---

(1) المقدسى: أحسن التقاسيم ص108.

(2) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص98 ، 99، من المعروف أنه خلال عصر استبداد الأتراك بالسلطة تعرضت بلاد العراق لعدة أزمات اقتصادية نتيجة إهمال مشاريع الرى والزراعة، وأصبحت مساحات واسعة من الأراضى الزراعية الخصبة مغمورة بمياه الفيضان ومن ثم قلت مساحة الأرض المنزرعة، الأمر الذى أدى إلى هجرة الفلاحين عن أراضيهم ونزوحهم إلى المدن والقرى المجاورة.

(3) كان المقطع يعمل على الإثراء وجمع المال ولا يتردد فى إرهاق الفلاحين حتى يستطيع أن يؤد للحكومة ما عليه من مال الخراج ويحتفظ لنفسه بما زاد على ذلك، والفلاحون مغلوبون على أمرهم، فلا تصل شكايتهم إلى المسئولين فى الدولة. أبو يوسف: كتاب الخراج ص18 ـ 20. وقد أورد الماوردى نوعى الإقطاع وهما: "إقطاع استغلال وإقطاع تمليك، الأول يمنح فيه المقطع حق الانتفاع فقط ولا يورث، والثانى يشمل الرقبة والانتفاع: الأحكام السلطانية ص171 ـ 182 وكان الخراج الذى يؤدى على الأرض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الحكومة، ويبلغ العشر على ما قرره الفقهاء، وتعود هذه الأرض المقطعة إلى الحكومة فى حالة مصادرة أصحابها، أو عند تطرق الخراب إليها. أبو يوسف: كتاب ص70، 71.

(4) هلال بن الصابئ: تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص134، 220 . الخوارزمى: مفاتيح العلوم ص41. وقد وصف المقدسى سياسة أمراء بنى بويه فى الإكثار من الضرائب والرسوم بقوله إن "لهم سياسة عجيبة ورسوم ردية". أحسن التقاسيم ص400.

(5) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ص47.

يفرض على الفلاح من ضرائب ورسوم "فنتج عن ذلك ظهور جبايات على غير رسم.. وحسابات فى النفقات لا حقيقة لشىء منها"[1].

على أن وقوع الفلاح تحت سيطرة كبار الملاك من الإقطاعيين يعود إلى ظاهرة "الالتجاء" أو الحماية التى كان صغار الملاك يلجأون إليها تحت وطأة ارتفاع الخراج، وظهور جبايات وضرائب جديدة، واضطراب الأوضاع، وسوء المعاملة وكثرة المصادرات[2]، وعدم العناية بشئون الزراعة والرى، وخراب الأراضى، واختلال الدواوين والحسابات[3]، وارتفاع الأسعار وانعدام الأقوات[4]. وإصابة المحاصيل الزراعية بالآفات[5]، مما جعل صغار الملاك من الفلاحين يعهدون بأراضيهم فى كثير من الأحيان إلى حماية أحد كبار الملاك وتسجيل تلك الأراضى بأسمائهم فى الديوان، وذلك مقابل دفع جزء من المحصول إلى الحامى من الإقطاعيين. وقد انتشرت هذه الظاهرة طوال العصر البويهى فيذكر مسكويه أن أراضى الكثيرين من صغار الملاك أصبحت تحت «حماية ابن شيرذاد»، وبمرور الوقت يصبح الحامى هو المالك الحقيقى للأرض بينما يتحول المالك الأصلى إلى مزارع أو أجير فى الأرض.

ويصف مسكويه حالة الفلاح فى العراق فى عهد «معز الدولة البويهى»(334 ـ 356هـ) فيقول: "فسدت المشارب وبطلت المصالح، وأتت الحوائج عليهم.. ورقت أحوالهم، فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن من شره"[6].

---

(1) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص99. يذكر المقدسى أن عضد الدولة قال: "غرضى من العراق الاسم ومن أرجان الدخل". فهو يبين أن اعتماده فى دخل الدولة ليس على خراج العراق بل على خراج أرجان وهى القسم الساحلى من فارس. أحسن التقاسيم ص421.

(2) أبو حيان: الإمتاع جـ3 ص88. هلال بن الصابئ: تحفة الأمراء ص134، 220.

(3) ابن خلدون: العبر جـ3 ص421.

(4) ابن الأثير: الكامل جـ9 ص27.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص234. كان الملاك الجدد من كبار الملاك يدفعون عن هذه الأراضى العشر فقط. ويذكر الخوارزمى عن طريقة التلجئة هذه هى "أن يطلق الضعيف ضيعته إلى قوى ليحامى عليها" مفاتيح العلوم ص41.

(6) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص97.

فلم يقمْ البويهيون حين استأثروا بالسلطة فى العراق باتخاذ سياسة زراعية ثابتة، أو تخطيط زراعى شامل، وإن كانت هناك تدابير فردية تعتمد على بعض الأمراء أو الوزراء، لإنقاذ المزارعين من الهوة التى تردوا فيها، فقد أظهر بعض الأمراء البويهيين رغبة فى إصلاح أحوال الزراعة والمزارعين فاهتموا بتنظيم الرى وتطهير الأنهار وسد البثوق والتغلب على مخاطر الفياضانات، فقام معز الدولة البويهى، بمحاولات لزيادة الثروة الزراعية[1] بالاهتمام بإصلاح الترع وسد البثوق وإصلاح الأراضى البور، ويذكر مسكويه نتائج هذه الإصلاحات بقوله: "فلما سد بثقوها عمرت بغداد وبيع الخبز النقى عشرين رطلا بدرهم"[2].

كما طالب معز الدولة وزيره «أبا محمد الحسن بن محمد المهلبى» بتخفيف الخراج عن الفلاحين وذلك بترحيل خراج سنة 350هـ إلى العام التالى[3]. ليتمكن من التوفيق بين موعد نضج الزرع وموعد الجباية[4]، بعد أن كان الزراع يضطرون إلى الاستدانة لدفع

---

(1) يذكر مسكويه أن معز الدولة سأل «أبا الحسن بن على بن عيسى» عن الأحوال فقال: "الدنيا خراب، والأمور على ما تراه، فأشر بما عندك فى إصلاح ذلك... ومن أول ما نظر به الأمير سد هذه البثوق فهى أصل الفساد وخراب السواد، فقال معز الدولة وقد نذرت لله عند حضورى فى هذه المرة ألا أقدم شيئًا على ذلك ولو أنفقت فيه جميع ما أملك". تجارب الأمم جـ2 ص106 ، 107.

(2) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص65. كان الاهتمام بالزراعة يستوجب تنظيم الرى وصيانة السدود "فإن إيقاع ثلمة صغيرة فى أحد نواحى السد... ربما أفسد فى ساعة أو نهار، تعب سنة أو نحوها، وذلك أن هذه السدود تكون من قصب وتراب يقام فى وجوه المياه الجارية عند ضعف جريانها وغاية نقصانها، فإذا وردت المياه القوية، ومنعت من حدودها، كفى معها اليسير من المعونة حتى تنبعث ويدفع بعضها بعضًا". مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص296 ـ 297.

(3) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص189.

(4) الصابى: تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص338. كان موعد جباية الخراج فى النيروز. ويذكر الصابى أنه حين جاء "العرب اقتدوا بملوك الفرس فى المطالبة بالخراج إبان النيروز، ولكن الفرس كانوا يكبسون السنين فى كل أربع سنين بيوم فأبطل الإسلام ذلك، ونشأ عن عدم الكبس أن الخراج كان يفتتح قبل نضج الزرع، وبينما كان المتوكل يطوف يوما فى متصيد له إذ رأى زرعًا أخضر، لم يدرك بعد، ولم يستحصد، وكان المتوكل قد استؤذن فى فتح الخراج، فقال: من أين يعطى الناس الخراج؟ فقيل له إن الأمر جار على ما أسسه ملوك الفرس من المطالبة بالخراج فى أثناء النيروز، فوقع عزم=

الخراج، كما منح فقراء الفلاحين قروضًا من الأموال والغلال على أن تسترد منهم فى موسم الحصاد[1].

غير أن محاولات الإصلاح هذه لم يكتب لها البقاء طويلا، فقد كان لثورات الجند وسوء الإدارة أثر كبير فى عرقلة الجهود التى بذلها معز الدولة لإصلاح أحوال الزراعة والمزارعين. فيذكر مسكويه ما حل بالبلاد من فوضى فى توزيع الإقطاعات وتفشى الرشوة فى سبيل الحصول عليها، وما كان يلجأ إليه البعض بعد تخريب ما كان بيدهم من إقطاعات من ردها وإبدالها والحصول على إقطاعات أخرى جديدة لاستغلالها، بينما يأخذ

= المتوكل على تأخير النيروز سبعة عشر يومًا من حزيران تداركا لما فات من عدم الكبس، ونفذت الكتب بذلك إلى الآفاق، ثم قتل المتوكل ولم يتم له ما دبر، فلما قام المعتضد احتذى ما فعله المتوكل فى تأخير النيروز.. فأخر النيروز إلى الحادى عشر من حزيران ثم وضع النيروز على شهور الروم لتكبس شهوره إذا كبست الروم شهورها لا على سنين الفرس من الكبس بشهر فى كل مائة وعشرين سنة. ولما كان لا يمكن ترك السنة الهلالية، فقد سارت السنتان الهلالية والخراجية، مع اختلافهما فى الطول جنبًا لجنب، وحدث اضطراب كبير بسبب تفاضل السنين، حتى صارت الجباية الخراجية فى السنة التى تنتهى إليها تنسب فى التسمية إلى ما قبلها، ولما لم يكن من الجائز كبس سنة الهلال بشهر ثالث عشر لأنهم لو فعلوا ذلك لتزحزحت الأشهر الحرم عن مواقعها وانحرفت المناسك عن حقائقها، ونقصت الجباية عن سنى الأهلة بقسط ما استرقه الكبس منها، فانتظروا بذلك الفضل أن تتم سنة أوجب الحساب المقرب أن تكون كل اثنتين وثلاثين سنة شمسية ثلاثا وثلاثين سنة هلالية فنقلوا المتقدمة إلى المتأخرة نقلا لا يتجاوز الشمسية". الصابى: ص214 ، 215، البيرونى: الآثار الباقية ص32 ، 33.

(1) يذكر مسكويه أنه فى أواخر عهد معز الدولة "أقطع أكثر السواد على حال خرابه ونقصانه، وقبل عودته إلى عمارته ثم سامح الوزراء المقطعين، وقبلوا منهم الرشى وأخذوا المصانعات فى البعض، وقبلوا الشفاعات فى البعض فحصلت الإقطاعات لهم فلما أتت السنون وعمرت النواحى وزاد الارتفاع فى بعضها بزيادة الغلات، ونقص فى بعضها بانحطاط الأسعار، وذلك أن الوقت الذى أقطع الجند فيه الإقطاعات، كان السعر مفرط الغلاء للقحط الذى ذكرناه، فتمسك الرابحون بما حصل فى أيديهم من إقطاعاتهم، ورد الخاسرون إقطاعاتهم فعرضوا عنها، وتمت لهم نقائصها، واتسع الخرق حتى صار الرسم جاريا بأن يخرب الجند إقطاعاتهم ثم يردوها، ويعتاضوا عنها من حيث يختارون، ويتوصلون إلى حصول الفضل والفوز بالربح، وقلدت الإقطاعات المرتجعة لمن كان غرضه تناول ما يجده فيها وترك الشروع فى عمارتها". تجارب الأمم جـ2 ص98.

الإقطاعات المرتجعة من يريد عاجل الفائدة دون التفكير فى عمارتها؛ لأنه يعلم أنه يستطيع إبدالها من جديد.

ونتيجة لهذه السياسة فقد "اقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم، فلا يضبطون ما يجرى على أيديهم، ولا يهتدون إلى وجه تثمير أو مصلحة"[1] وساءت بذلك حالة الفلاحين "وبطل أن يسمع لأحد ظلامة أو يقبل من كاتب نصيحة، وبقى المقطعون من غير تفتيش مما عوملت به الرعية... من جور أو نصفه"[2].

كما انصرف العمال والمشرفون على الرى عن الضياع "لخروج الأعمال عن يد السلطان"[3].

وظلت أحوال الفلاحين على هذا الوضع حتى عهد «عضد الدولة» سنة (367 ـ 372هـ) فشهد العراق فترة إصلاح تمثلت فى الاهتمام بالزراعة بإصلاح نظام الرى وحفر بعض القنوات وتطهير الأنهار وإعادة حفر ما دثر منها. كما شق نهرًا يصل بين الأهواز وبين نهر دجلة[4] سمى بالنهر «العضدى» كما أقام السدود[5]. مما أدى إلى انتعاش الزراعة وأحوال الفلاحين. غير أن تلك الإصلاحات لم تستمر طويلا بسبب اضطراب أحوال البلاد السياسية مما أدى إلى إهمال الزراعة ومشاريع الرى فيما عدا بعض الإصلاحات الفردية التى قام بها بعض الوزراء[6]، إلا أنها كانت إصلاحات وقتية فلم تؤدِ إلى تحسين

---

(1) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص98.
(2) المصدر السابق نفس الصفحة.
(3) المصدر السابق نفس الصفحة. كانت الإقطاعات تمنح إلى طبقتين من الناس إحداهما طبقة القواد والجند والثانية كبار رجال الدولة من المدنيين. وكان الكتاب "أهدى من الجند إلى تغريم السلطان، والحيلة عليه فى كسب الأموال" .مسكويه تجارب الأمم جـ2 ص98.
(4) ابن الأثير: الكامل جـ7 ص100.
(5) المقدسى: أحسن التقاسيم ص419. ابن الأثير: الكامل جـ7 ص229. ويذكر أبو شجاع أن عضد الدولة عمل السكور (السدود) وأنفق فيها الأموال وأعد عليها الآلات، ووكل بها الرجال وألزمهم حفظها بالليل والنهار". ذيل تجارب الأمم ص69.
(6) قام الوزير «أبو الحسن بن على بن محمد الكوكبى» سنة 382هـ بحفر الأنهار المخترقة أسواق الكرخ، وسد فخر الملك سنة 385هـ بثقًا فى النهروان حفر «أبو العباس بن واصل نهرًا» سنة 395هـ . ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص.168 ياقوت: معجم الأدباء جـ1 ص339.

ثابت، ولم ترفع من مستوى الفلاح الاجتماعى رغم أن عهود التولية والأوامر الصادرة من الخلفاء والأمراء والوزراء طالبت بالعناية بالمزارعين وتحسين نظام الرى ومراقبة الجباة والحماة وكبار الإقطاعيين، فإن الفلاحين قاسوا خلال حكم البويهيين وانخفض مستواهم الاقتصادى والاجتماعى[1].

3 ـ فئة المعدمين، وانتشار الفوضى واضطراب الأمن

وإلى جانب تلك الطبقات كانت هناك فئة من المعدمين وأشباه المعدمين، كانت تدفعهم شدة الأزمات الاقتصادية وما يترتب عليها من المجاعات، وقلة الأقوات، إلى ترك بلادهم والهجرة إلى الشام وخراسان[2]، وقد يتجهون فى جماعات أضناها الجوع وأنهكها التعب إلى أى مدينة كالبصرة عسى أن يجدوا بها ما يسد رمقهم من تمر النخيل[3].

أو قد يجتمعوا فى مسيرة إلى أفاضل الشيوخ والأشراف والعلماء مطالبين بالخبز وخفض الأسعار ـ "ليبلغوا أمرهم إلى السلطان"[4]. فقد ذاق العوام الأمرَّين خلال فترات اشتداد الغلاء وارتفاع الأسعار حيث عمت الفتن وكثر الفساد[5]، وكسدت التجارة، وضعفت هيبة السلطان، وحين يتدخل الأمراء لتسعير السلع لخفض أسعارها تختفى البضائع من الأسواق، وعندما يعظم الخطب يضطر أولى الأمر إلى إلغاء التسعير[6].

وقد اشتد الغلاء وقت دخول البويهيين العراق وسيطرتهم على بغداد سنة 334هـ ، حتى "أصبح العثور على رغيف الخبز صعب المنال.. وصارت العقارات والدور تباع برغفان الخبز"[7].

---

(1) رسائل الصاحب بن عباد ص55.
(2) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص443، جـ9 ص35. أبو حيان: الإمتاع جـ3 ص155.
(3) يحيى الأنطاكى: صلة التاريخ المجموع جـ2 ص104.
(4) أبو حيان: الإمتاع جـ3 ص155.
(5) ابن الأثير: الكامل جـ9 ص64.
(6) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص443.
(7) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص379. يحيى الأنطاكى: صلة التاريخ المجموع جـ2 ص104. ابن العماد: شذرات الذهب جـ2 ص335.

وتتحدث كتب التاريخ عن مجاعات متكررة وغلاء مفرط أصاب العراق، خلال فترة التغلُّب البويهى. وما تبع ذلك من اضطراب الأمن، فسرقت المنازل ونهبت المحال التجارية وعمت الفوضى[1].

وقد كان لسياسة البويهيين فى التعصب للشيعة[2] أثرها فى قيام الفتن الطائفية، وثورات الجند وما ترتب على ذلك من انتشار الفوضى واضطراب الأمن فى المجتمع فى العراق طوال عصرهم. فقد بدأ معز الدولة البويهى حكمه بخلع الخليفة العباسى المستكفى بل فكر فى الإطاحة[3] بالخلافة العباسية السنية ويعلل ابن الأثير ذلك بقوله:

---

(1) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص232. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص222. يحيى الأنطاكى: صلة التاريخ المجموع جـ2 ص4، مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص98 ، 99، هلال بن الصابئ: تحفة الأمراء ص134، 220. أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ص47.

(2) يذكر ابن حزم أن فكرة التشيع بدأت بسيطة فى أول الأمر فكل من وافق الشيعة فى أن عليًا رضى الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحقهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعى، وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف عليه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرناه فليس شيعيًا". الفصل فى الملل والنحل جـ2 ص113. وكانت العراق هى الموطن الأول للتشيع، وكان أنصار الشيعة يسكنون القسم الشرقى منها، بينما كان السُّنيون يشكلون غالبية سكان القسم الغربى خاصة عند باب البصرة. ابن الأثير: الكامل جـ9 ص146. ويذكر ابن الجوزى أنه "كان يجتمع الشيعة فى مسجد براثا ببغداد سنة 313هـ فقام الخليفة بالقبض عليهم وتفتيشهم فوجد معهم خواتم من طين أبيض عليها اسم الإمام فهدم المسجد ثم أمر فى أواخر عهد الخليفة الراضى بإعادة بناء هذا المسجد سنة 328هـ ، ليكون مسجدًا لأهل السنة. ابن الجوزى: المنتظم ص29. أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ2 ص329. ابن الأثير: الكامل جـ9 ص278. مسكويه: تجارب الأمم جـ6 ص37.

(3) يذكر ابن خلدون أن البويهيين اعتنقوا مبادئ الشيعة الزيدية فيقول:

"... ثم اختلف هؤلاء الشيعة فى مساق الخلافة بعد على... وأما الزيدية فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها، وأنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص، فقالوا بإمامة على ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه على زين العابدين ثم ابنه زيد بن على وهو صاحب هذا المذهب، وخرج بالكوفة داعيًا إلى الإمامة فقتل وصلب بالكناسة. وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده، فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان، بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن الحسن السبط. ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدى، وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد إلى أخيه إبراهيم، فقام بالبصرة، ومعه عيسى بن زيد بن على، فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم، وقتل إبراهيم وعيسى، وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله.. وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام ابن محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن على بن عمر، وعمر هو أخو زيد بن على فخرج محمد بن القاسم بالطالقان=

"وكان من أعظم الأسباب فى ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها"[1]، وقد أدى تعصب البويهيين للشيعة أن أجبروا أهل السنة على الاحتفال بأعياد الشيعة[2].

كما كانت تلك السياسة سببًا فى قيام كثير من الفتن فى بغداد. ففى سنة 349هـ قامت الفتنة بين أهل الشيعة والسنة فى بغداد، وتعطلت على إثرها صلاة الجمعة بمساجد أهل السنة، ولم تقم الجمعة إلا فى مسجد بارثا الشيعى[3].

كما أمر معز الدولة سنة 351هـ "بلعن الصحابة" وكتابة هذا اللعن على المساجد، إلا أن أهل السنة قاموا بمحو هذه الكتابة ليلا[4].

وفى سنة 352هـ أمر معز الدولة بأن يحتفل الناس بيوم عاشوراء وهو أكبر عيد عند الشيعة وأن يظهروا الحزن، فأغلقت المتاجر وعطلت الأسواق وخرجت النساء وقد "شققن ثيابهن يدرن فى البلد وينحن ويلطمن وجوههن على الحسين"[5].

كما أمر معز الدولة أن يحتفل الناس بعيد «الغدير»[6] سنة 352هـ "فنصبوا القباب،

= فقبض عليه وسيق إلى المعتصم فحبسه ومات فى حبسه... وقال آخرون من الزيدية إن الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوه إدريس الذى فر إلى المغرب ومات هناك... وبقى أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم، وكان منهم الداعى الذى سلك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن على بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد. ثم قام بهذه الدعوة فى الديلم الناصر الأطروش منهم، وأسلموا على يده، وهو الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمر وهو أخو زيد بن على، فكان لبنيه بطبرستان دولة، وتوصل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد". المقدمة ص354 ، 355.

(1) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص162.

(2) الجهشيارى: كتاب الوزراء ص371. ابن الأثير: الكامل جـ8 ص403. ابن الجوزى: المنتظم ص89.
Harold Bowen: THE Iast Buwayhids, J R. A. S. 1929 P. 232 – 233.

(3) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ2 ص351. ابن الأثير: الكامل جـ8 ص397.

(4) ابن الجوزى: المنتظم ص 89. أبو المحاسن: النجوم جـ 2 ص 351. ابن الأثير: الكامل جـ 8 ص 397.

(5) الجهشيارى: كتاب الوزراء ص 371. ابن الأثير: الكامل جـ 8 ص 403.

(6) هو عيد غدير خم والشيعة يرون أنه اليوم الذى عهد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى على بن أبى طالب واستخلفه. ابن الأثير: الكامل جـ8 ص407.

وعلقوا الثياب؛ وأظهروا الزينة، وفى ليلته أشعلت النيران بمجلس الشرطة، وضربت الدبادب والبوقات، وفى صبيحته نحروا جملا"[1].

وكانت تلك الأمور وغيرها تثير حفيظة أهل السنة فى العراق، فلم تنقطع ثوراتهم، فقد قام أهل السنة سنة 362هـ بمهاجمة أحياء أهل الشيعة وحرقها. ويذكر ابن الأثير ما تعرض له الكرخ وهو أكثر أحياء بغداد سكنى بالشيعة[2] بقوله: "احترق الكرخ حريقًا عظيمًا، وسبب ذلك أن صاحب المعونة قتل عاميًا، فثار به العامة والأتراك، فأخرج منها مسحوبًا وقتل وأحرق، وفتحت السجون فأخرج من فيها؛ فركب الوزير لأخذ الجناة، وأرسل حاجبا له يسمى صافيا فى جمع لقتال العامة بالكرخ، وكان شديد العصبية للسُّنية فألقى النار فى عدة أماكن من الكرخ، فاحترق حريقا عظيما وكان عدد من احترق سبعة عشر ألف إنسان وثلثمائة دكان وكثير من الدور وثلاثة وثلاثين مسجدًا، ومن الأموال ما لا يحصى"[3].

كما عمت الفوضى العراق فى أواخر عهد الخليفة المطيع ويعلل مسكويه ذلك بقوله: "وكل ذلك لسوء نظر بختيار وإهماله الأمور... وظهرت الأهواء المختلفة والنيات المتعادية، وفشا القتل حتى كان لا يعدم فى كل يوم عدة قتلى لا يعرف قاتلوهم، وإن عرفوا لم يتمكن منهم، فانقطعت موارد الأموال، وخربت النواحى المتباعدة بخراب دار المملكة، وظهر فى كل قرية رئيس منها مسئول عليها؛ وتباغوا بينهم، وحصل السلطان صفر اليد، والرعية هالكون، والدور خراب، والأقوات معدومة"[4].

وفى وسط هذا الجو المشحون بالاضطراب والفوضى بالإضافة إلى عوامل التدهور

---

(1) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص407. الجهشيارى: كتاب الوزراء ص371.

(2) يذكر ياقوت: "أما الكرخ فأهلها كلهم شيعة إمامية لا يوجد فيهم سنى البتة". معجم البلدان جـ4 ص255.

(3) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص225، 226.

(4) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص314.

الاقتصادى والفساد الاجتماعى ظهرت فى المجتمع العراقى طائفة «العيارين»[1] وليدة لتلك الفوضى وطائفة "الأدباتية" وليدة الفقر، وقد بلغوا من الكثرة فى المجتمع العراقى درجة كبيرة ووصف المقدسى خطرهم على المجتمع العراقى[2].

وكان العيارون يضمون فى صفوفهم أجناس وطوائف مختلفة فمنهم العربى والكردى والفارسى والتركى، ومنهم العباسى والعلوى والسنى والشيعى[3] وقد أشار ابن الأثير إلى المشتركين فى حوادث 261 ـ 362هـ بقوله: "وهم أصناف الفتيان والسنة والشيعة والعيارين"[4]. وعلى الرغم من التنوع والاختلاف فى جنسيات العيارين فقد وصفوا بشدة طاعتهم لرؤسائهم، وسرعة حركة لتنفيذ ما يؤمرون به، حيث كانوا ينظمون أنفسهم على شكل جماعات، فى كل محلة ومنطقة[5] فلكل جماعة قائد ينظم حياة جماعته ويشرف على أمورها وكافة شئونها وقد أطلق عليهم المقدسى "دول العيارين"[6].

وكان من أشهر قواد العيارين «ابن كبرويه» و«أبو الدود»، و«أسود الزبد»، و«أبو الأرضنة»، و«أبو النوايح»[7]، و«أبو على البرجى»، وكان هؤلاء وغيرهم ينهبون الدور

---

(1) اختلفت كتب التاريخ فيما أطلقته على هذه الطائفة فأحيانا ترد باسم الأوباش والطرادين وأهل السوق كما يسميهم ابن الجوزى العيارين أو الفتيان ابن الجوزى: أخبار الظراف ص46 وقد شرحنا أصل كلمة العيارين اللغوى فى موضع سابق. كما يذكر ابن خلدون عند حديثه عن عزل بختيار للوزير أبى الفضل وتعيينه محمد بن بقية أنه "حين استوزر محمد بن بقية استقامت أموره، ونمت أحواله بتلك الأموال، فلما نفذت عاد إلى الظلم، ففسدت الأحوال، وخربت تلك النواحى وظهر العيارون وتزايد شرهم وفسادهم" العبر جـ4 ص953.

(2) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص130.

(3) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص220، جـ8 ص78. الذهبى: العبر فى تاريخ من غبر جـ3 ص100.

(4) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ8 ص222.

(5) يذكر أبو حيان أن "منهم من أصبح من أثرياء بغداد فهذا أسود الزبد، كان فقيرًا قاطع طريق، فلما حلت الفتنة ونشأ الهرج والمرج، ورأى هذا الأسود من هو أضعف قد أخذ السيف وأعمله، طلب سيفًا شهره وأغار سلب.. فلما دعى قائدا، أطاعه رجال وفرق الأعطية فيهم، وطلب الرئاسة عليهم، وصار جانبه لا يرام وحماه لا يضام" . الإمتاع جـ3 ص160 ، 161. ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص75.

(6) المقدسى: أحسن التقاسيم ص45.

(7) أبو حيان: الإمتاع جـ3 ص160. وابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص227.

ويهددون من بها من السكان طلبًا للمال[1] "فيقبضون على صاحب الدار ويعذبونه حتى يدلهم على ذخائره وماله". ومع هذا لا يستطيع أن يذكر اسم قائد الجماعة التى سطت عليه خوفًا منه[2]، وقد فرضوا أنفسهم بالقوة على الجند، ولم يستطع رجال الشرطة والأمن مقاومتهم وحماية الناس[3] من شرهم، بل إن المسئولين عن الأمن من رجال الشرطة لم يسلموا من أذاهم ففى سنة 424هـ قتل العيارون صاحب الشرطة فى بغداد[4] ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنهم فى سنة 438هـ أشاعوا الفوضى فى بغداد وفتحوا السجون، وأطلقوا سراح المسجونين، وقتلوا من رجال الشرطة سبعة عشر[5] رجلا.

وقد امتد عبث العيارين إلى كل طبقات المجتمع وطوائفه فتعرضوا للأشراف فحرقوا منازلهم[6]. ونهبوا المتاجر والأسواق ووقفوا فى الدروب والطرق يرهبون الناس ويأخذون أموالهم[7]. لذلك لجأ أصحاب الحرف والتجار إلى ما يعرف بنظام الفتوة للقيام بأعمال الشرطة فيما بينهم لمواجهة خطر العيارين، حيث عجزت الشرطة عن التصدى لهذه الفئة، بل كان الأمراء ورجال الدولة يخشون سطوتهم[8]. وقد قام بعض أمراء بنى بويه بتقرير الجرايات والصدقات على فقراء العامة رغبة فى استمالتهم وإبعادهم عن الانضمام

---

(1) أبو حيان: الإمتاع جـ3 ص162. ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص138.

(2) ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص204.

(3) المصدر السابق ص227. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص107. ابن كثير: البداية والنهاية جـ12 ص26.

وكان العيارون يتميزون فى مظهرهم عن باقى العامة بكونهم حليقى الرءوس يغطونهم بخوذ من خوص وهم عراة لا يتوارون إلا بخرقة تدعى بالمئزر حيث يشدونها فى أوساطهم، ولم تفارق أحدهم الشارونة" وهى حبل كان العيار يحمله معه دائما. التنوخى: الفرج بعد الشدة جـ2 ص112. أبوحيان: الإمتاع جـ3 ص160.

(4) ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص226.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية جـ12 ص40.

(6) ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص204.

(7) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص107. ابن العماد: يذكر مسكويه أنهم "أخذوا من الأسواق الجبايات، وقتلوا الرجال، وأرعبوا النساء والأطفال فى سائر المحال" .تجارب الأمم جـ2 ص305.

(8) ابن خلدون: العبر جـ4 ص1013.

إلى طوائف العيارين،[1] وكان هؤلاء إما "أدباتية" أو شحاذين وقد انتشروا فى كافة أنحاء العراق حيث اتخذوها حرفا تدر الربح "تحتاج إلى النشاط والحركة، وإلى الفطنة واللباقة، وإلى المكر والحيلة، وتصنفوا فى ذلك إلى أبعد الحدود"[2]. ويذكر الحريرى[3] "لم أر ما هو بارد المغنم، لذيذ الطعم، وافى المكسب، صافى المشرب، إلا الحرفة التى وضع ساسان أساسها، ونوع أجناسها، إذ كانت المتجر الذى لا يبور. والمنهل الذى لا يغور، وكان أهلها أعز قبيل... لا يرهقهم مس حيف، ولا يقلقهم سل سيف.. أينما سقطوا لقطوا... لا يتخذون أوطانًا، ولا يتقون سلطانًا". ويتضح من أشعارهم أسلوب حياتهم وطرقهم فى استدرار عطف الناس وأخذ أموالهم[4] وكيف كانوا يطوفون على الحوانيت ويمشون فى الطرق وقد ربطوا جباههم بالعصابات يوهمون الناس بأنهم مرضى أو عرجى فقال أحدهم:

تَعارجتُ لا رغبةً فى العرَجْ ولكن لأقرَعَ بابَ الفرْج[5]

فقد دفعت الفاقة وسوء الأحوال الاقتصادية[6] كثيرًا من العامة إلى التردى إلى هذه الدرجة من الانحدار الاجتماعى.

4ـ المرأة ودورها فى المجتمع العراقى

شاركت المرأة بنصيب كبير فى الحياة السياسية فى المجتمع العراقى طوال العصر العباسى، وتحفظ لنا كتب التاريخ نماذج عدة لتدخل النساء فى شئون الدولة، وما كان

---

(1) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص407 ، 408. أبو حيان: الإمتاع جـ3 ص85. الحريرى: المقامات جـ1 ص56.

(2) الحريرى. المقامات جـ2 ص396.

(3) الحريرى. المقامات جـ2 ص396.

(4) يذكر الثعالبى: يتيمة الدهر جـ3 ص104 أن الأحنف العكبرى أنشد يقول:

يا إخوانى بنى ساسان أهل المجد والجد
ومن خـاف أعاديه بنا فى الروع يستجـد

(5) مقامات الحريرى جـ1 ص65.

(6) ابن الجوزى: المنتظم جـ6 ص344. السيوطى: تاريخ الخلفاء ص160.

يقمن به من دور فى تسيير دفة الحكم والسياسة[1]، كما تقلد بعضهن المناصب الرئيسية فى الدولة كمنصب صاحبة المظالم[2].

وتدل ألقاب النساء فى العصر البويهى على نظرة الاحترام والتقدير لها من قبل كبار رجال الدولة، فقد ظهرت ألقاب مثل "الحرة" و"أم ولاة عهد المسلمين" و"الدار العزيزة" و"شاة الزمان"[3]، كما أسبغت عليهن فى المكاتبات الرسمية الصادرة من ديوان الإنشاء عبارات التفخيم والتبجيل. ويمكننا أن نرى دور النساء[4] واضحا فيما ذكره

---

(1) كانت "السيدة" أم الخليفة المقتدر سنة 295 ـ 320هـ هى المهيمنة على مجريات الأمور فترة خلافة ابنها الذى لم يكن يبرم من الأمر شيئا إلا بإرادتها وبعد موافقتها وكانت تتولى أمر الدولة داخليًا وخارجيا ويذكر مسكويه رد الوزير المصلح على بن عيسى على ما طالبت به من أمور تتعلق بالسياسة المالية للدولة. مسكويه: تجارب الأمم جـ3 ص247 ـ 248، ويذكر الطقطقى تدخل "السيدة" فى عزل الوزراء وفى كافة شئون الدولة بقوله: "واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه، ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه، فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم" الفخرى فى الآداب السلطانية ص240.

(2) ازداد نفوذ أم المقتدر فعينت وصيفتها "ثومال" صاحبة المظالم. وبنت لها موضعًا تجلس فيه فى الرصافة أيام الجمع لتنظر فى المظالم. السيوطى: تاريخ الخلفاء ص253 ، 254.

(3) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص119. ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص59.

(4) يذكر مسكويه أن "أبا العباس التميمى الرازى، وكان خصيصا بتوزون (أمير الأمراء الذى استبد بالسلطة فى الدولة فى خلافة المتقى سنة 331هـ) قال كنت أنا السبب فيما جرى على المتقى، وذلك أن إبراهيم بن الربنبذ الديلمى لقينى يومًا وسألنى أن أصير إلى دعوته، فاستأذنت توزون فى ذلك، فأذن لى فيه، ومضيت إليه وهو ينزل فى دار القراريطى على دجلة، فوجدت داره مفروشة منضدة، فسألته عن السبب فى ذلك.. فقال: أعلم أنى خطبت إلى قوم وتجملت عندهم بأن ادعيت أن لى محلا من الأمير واختصاصا به، فقالت لى المرأة: إذا كنت بهذه المنزلة، فهل لك أن تسفر فى شىء يجمع صلاح الأمير، وصلاحك وصلاح المسلمين. فقلت لها: نعم، قالت هذا الخليفة قد عاداكم وعاديتموه، وكاشفكم وكاشفتموه، وليس يجوز أن تصفو نيته لكم آخر الدهر، وقد اجتهد فى بواركم، فلم يتم له، فمرة ببنى حمدان ومرة ببنى بويه، وههنا رجل من ولد الخلافة من فهمه وعقله ودينه.. تنصبونه فى الخلافة، وتزيلون المتقى لله، وهو يثير لكم أموالا جليلة لا يعرفها غيره ولا يقدر عليها سواه، وتكونون أنتم قد استرحتم من عدو تريدون أن تحرسوه وتحترسون منه، وتخافونه ويخافكم. وتقيمون رجلا من قبلكم يرى أنكم قد أحسنتم إليه.. وأطالت الكلام فى هذا المعنى وعلمت أن هذا الأمر لا يتم إلابك ولا يقدر عليه غيرك..". تجارب الأمم جـ2 ص36.

مسكويه عن خلع الخليفة العباسى «المتقى» وأخذ البيعة للخليفة «المستكفى» سنة (333 ـ 334هـ).

ومن النساء من تعلمن وتثقفن على أيدى كبار العلماء مثل «طاهرة بنت أحمد التنوخية»[1] التى توفيت سنة 436هـ ومنهن من أصبحت عالمة متفقهة فى الدين مثل «ستيتة» ابنة القاضى أبى عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملى» (ت 377هـ)، التى كانت تفتى مع العلماء[2]. وكانت من أعلم الناس فى وقتها بمذهب الإمام الشافعى[3]؛ فكانت تقرأ القراءات والفرائض والنحو وغير ذلك من العلوم، كما اشتهرت بالزهد وكثرة العبادة والصدقة. وكانت تقوم بالإفتاء فكانت حجة فيه[4].

كما أشاد كثير من العلماء بذكر "أمة السلام" ابنة القاضى أبى بكر محمد بن أحمد (ت 390) وتُكنى بأم الفتح، واعترفوا بعلمها وأثنوا عليها، ووصفوها بالديانة والعقل والفضل[5].

ويتحدث الخطيب البغدادى[6] عن «خديجة بنت موسى بن عبد الله» الواعظة، وعن «كريمة بنت أحمد الماوردى» فوصفها بسعة العلم "عارفة بالحديث[7]". كما كان منهن من اشتهرت برجاحة العقل فقلن الحكم والأقوال المأثورة مثل«ميمونة بنت ساقولة» الواعظة البغدادية التى توفيت سنة 393هـ[8].

وكانت المرأة لا تخرج كاشفة الوجه أو حاسرة الرأس فى الأسواق والطرقات، فكان

---

(1) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ14 ص445.
(2) أجاز أبو حنيفة أن تتولى المرأة القضاء، فتقضى فيما تصح شهادتها فيه. الماوردى: الأحكام السلطانية ص107.
(3) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ14 ص442. ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص306.
(4) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص152.
(5) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ4 ص443. ابن كثير: البداية والنهاية جـ7 ص214.
(6) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ4 ص445.
(7) ياقوت: معجم الأدباء جـ4 ص18.
(8) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص209.

عليها أن تغطى وجهها[1] وتتخذ التحفظ والحشمة، والابتعاد عن الرجال عند حضورها مجالس الوعظ أو فى الأسواق.

غير أن هذا لم يمنع من اختلاط المرأة بالرجل فى الأسواق وعلى شواطئ الأنهار وفى زيارة القبور[2].

وكان المحتسب يقوم بمهمة مراقبة النساء فى الأسواق والمحال، وأثناء سيرهن فى الشوارع ليلتزمن[3] بالآداب العامة حفاظًا عليهن، ويذكر ابن الأثير ما قام به المحتسب وغيره ممن يغار على الدين فى قمع المنكر فى بغداد، فكانوا يقومون بتفتيش الدور فإن "وجدوا نبيذًا أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء"[4].

وكان الرجل يكتفى عادة بزوجة واحدة[5]، وكان مقدار الصداق يختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية؛ فقد يصل لدى الأثرياء إلى أكثر من مائة ألف دينار، عدا ما يحمل الزوج إلى بيت الزوجية من الثياب الفاخرة والأوانى الثمينة والفرش الكثيرة النادرة[6]. وما ينفقه فى العرس من أموال قد تصل إلى سبعمائة ألف دينار، مبالغة فى تكريم المرأة[7]. وكانت العامة تحرص على تقديم الصداق بقدر ما تستطيع، وكانت الخطبة تتم عادة عن

---

(1) الغزالى: إحياء العلوم جـ2 ص230.

(2) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ12 ص76. الماوردى: الأحكام السلطانية ص222. ابن الجوزى: المنتظم جـ8 ص278.

(3) رسائل الصاحب بن عباد ص40 ـ 41.

(4) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص229 ـ 230.

(5) يذكر الخطيب البغدادى أن أحد الرجال جلس يتكلم عن زوجته وأنه لم يتخذ زوجة غيرها فقال. "أقامت أم صالح معى ثلاثين سنة فما اختلفت أنا وهى فى كلمة". تاريخ بغداد جـ14 ص438. ووصف أحد التجار زوجته فقال: "لو رأيتها والخرقة فى وسطها وهى تدور من التنور إلى القدور تنفث بفيها النار، وتدق بيدها الأبزاز لرأيتها منظرًا تحار فيه العيون". مقامات الهمذانى ص102.

(6) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص105. ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص302. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص144 وقد جرت العادة ألا يرى الرجل من يريد التزوج بها رؤية تامة إلا فى حدود ما يسمح به الشرع الإسلامى.

(7) ابن الجوزى: الأذكياء ص77.

طريق الوساطة التى تقوم بها سيدة من أقارب أو أصدقاء الأسرة[1]. ومن العادات المتبعة عند الزواج أن تزف المرأة إلى بيت زوجها حيث تقام لها ولأهلها وليمة ينفق عليها الزوج حسب إمكانياته[2] ويدعو إليها من يرى دعوته من الأقارب والأصدقاء.

ومع أن الناس يفضلون إنجاب الذكور على الإناث إلا أنهم كانوا يهنئون بعضهم بعضًا عند مولد البنت، فقد كتب الصاحب بن عباد سنة 385هـ للتهنئة بمولد بنت فقال. "أهلا وسهلا بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار والأولاد، والمبشرة بأخوة يتنافسون، ونجباء يتلاحقون".

فلـــو أن النـــساء كمثـــل هـــذى لفـــضلت النـــساء علـــى الرجـــال

ومـا التأنيـث لاسـم الـشمس عيـب ولا التـــــذكير فخـــــر للـــــهلال

كما كتب الخوارزمى[3] معزيًا لرجل فَقَدَ ابنته داعيًا أن يعوضه الله عنها.

أما زواج المرأة بعد وفاة زوجها فرغم أن الشريعة الإسلامية أجازته ، إلا أنه لم يكن من الأمور المستساغة، فحين تزوجت أم المؤرخ مسكويه بعد وفاة والده كتب إليه الخوارزمى (ت 393هـ). "وقد كنت أسأل الله أن يبارك لك فى حياتها، والآن أسأله أن يعجل بوفاتها، فإن القبر أكرم صهر، وإن الموت أستر ستر، ولا تذهب نفسك حسرات على ما سبقك عليه الدهر"[4].

فالخوارزمى فى هذه الرسالة يعبر عن وجهة نظر معاصريه إلى زواج الأرامل، وعن مدى السخط الذى يجيش بصدورهم إزاءه على أساس أنه مظهر من مظاهر عدم الوفاء، رغم شرعية هذا الزواج، وهو فى ذلك يقول: "الحمد لله الذى كان العقوق من جهتها، ووقوع الجفاء من جنبتها"[5].

---

(1) ابن الجوزى: الأذكياء ص 428.
(2) ابن الجوزى: الأذكياء ص182، 183. كما يذكر أنه كان يحضر هذه الولائم أشخاص غير مدعوين يسمون "الطفيليين".
(3) رسائل الخوارزمى ص61. ديوان الشريف الرضى جـ1 ص245.
(4) رسائل الخوارزمى ص173.
(5) المصدر السابق نفس الصفحة. البيهقى: المحاسن والمساوئ ص449.

5 ـ الرقيق

كان الرقيق[1] يكونون طبقة من طبقات المجتمع العراقى، فقد انتشرت تجارة الرقيق فى العراق، وكان فى بغداد شارع يسمى "شارع دار الرقيق"[2] لوجود دار لبيع وشراء الرقيق فيه، وكان يعهد للمحتسب بالإشراف على سوق الرقيق[3]، كما كان يعين عامل من قبل الحكومة للإشراف على تجار الرقيق يسمى "قيِّم الرقيق".

وقد اشتهر بالعراق كثير من النخاسين (تجار الرقيق) بما لديهم من جوار اشتهرن بالشعر والغناء والأدب منهم: «أبا عمير»، و«أبو الخطاب» الذى كانت له جارية مغنية تعرف بذات الخال، و«حرب بن عمر الثقفى» الذى كانت له جارية مغنية كان شعراء بغداد وأدباؤها يجتمعون عنده لسماعها[4].

---

(1) يبين الأئمة أن سبب الرق من واقع أصول الأحكام هو "وقوع الكافر أسيرًا فى يد المسلمين عند الحرب، كما يجوز أن يسترق أهل البلد الذى فتح فى الحرب رجالا كانوا أو نساءً" ولا يشترط لأجل بقاء الرق بقاء سببه، وهذا الرقيق يعد مالا، تجرى عليه كل المعاملات المالية من بيع وشراء". وكان له سوق يشترى منه من يشاء، كما عنى الإسلام بطائفة الأسرى حيث خير الإسلام بين المن والإطلاق دون قيد أو شرط وبين الفداء بالمال أو ضرب الرق على من بيده من الأسرى قال تعالى: 4 tim „# ŏ $B)r Ł/ $ŒB $B¸ø -$0qB$ #r –ø OŁdqJFZ ßR& #) #tim > $%ñ9$ > ø #r° . ß %!$ OF)9 # ¸ø ? Æ $d # r& > t=$. [سورة محمد آية 4]. وقد اعتبر الإسلام الرق عارضا، فحرص على أن يسترد الأرقاء حريتهم ومصداق ذلك قول الله تعالى b) NŁdq7?%3ø N3Ž»J & M3=B $ŒÙB = »G3$$ bq G6 ß %!$r ≡ NŁdqŒ# r #[z N¡ ŏ NGJ= Æ N38?# %!$«! $ A$B ‘B [سورة النور آية 33]، كما جعل الله تحرير الرقيق كفارة لبعض الذنوب كالتكفير عن يمين حنث فيه سيده، أو كفارة عن بعض الذنوب أو وفاء لنذر أو تقربًا إلى الله والتماس المثوبة منه. القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص386 ، 387.

(2) المسعودى: مروج الذهب جـ2 ص241.

(3) الماوردى: الأحكام السلطانية ص404. الصابى: رسائل الصابى ص113 وقد وصف اليعقوبى سوق الرقيق فى سامراء بما بها من طرق متشعبة وحجرات وغرف يجلس بها الرقيق حيث كان بيع الرقيق فى السوق العام أمر مستهجن. جغرافية اليعقوبى ص258 ، 259.

(4) أبو الفرج الأصفهانى: كتاب الأغانى جـ9 ص128.

وكان علم الجارية بالغناء والشعر والأدب مما يزيد قيمتها أضعاف ثمنها[1]. وعرف فى ذلك العصر نوعان من الرقيق: البيض والسود: فالبيض يجلبون من بلاد الترك وأرمينية وبلاد اليونان، والسود يجلبون من بلاد السودان والحبشة، وكان الناس يفضلون الصقالبة على الأتراك فيذكر الثعالبى أنه "يستخدم التركى عند غيبة الصقلبى"[2].

وقد ارتفع سعر الجوارى البيض، ويذكر الإصطخرى[3] أنه بلغ سعر الجارية ما يزيد على ألف دينار خاصة منذ القرن الرابع الهجرى حيث كانت بيزنطة وأرمينية[4] المنبع الباقى لجلب الرقيق.

وكان العبد يستطيع أن يشترى حريته بدفع قدر من المال يقدمه إليه فيصبح حرًا. وهو ما يعرف بالتحرير بالمكاتبة.

وكان الطفل الذى يولد للمسلم من أمته يكون حرا، ولا يجوز للرجل أن يبيع الأمة أم الولد، وتصبح الأمة أم الولد حرة بعد موت زوجها[5]. وكثيرًا ما كان أبناء الجوارى أحب إلى آبائهم، ولم يكن ثمة فرق فى التوريث بين أبناء الحرائر والإماء[6].

وقد حظيت الجوارى بمكانة متميزة عند الأمراء والأثرياء ويذكر أبو شجاع ولع عضد الدولة البويهى بإحدى جواريه إلى حد أنه حين خاف على نفسه وملكه من الشغالة بها أمر بتغريقها وهو حزين عليها[7].

---

(1) المصدر السابق جـ17، 11 جـ7 ص36. ويذكر ابن الجوزى أن الأمير ابن رائق اشترى سنة 325هـ "جارية سمراء موصوفة بحسن الغناء بثلاثة عشر ألف دينار". المنتظم ص88.

(2) يتيمة الدهر جـ4 ص116. وكانت بسمرقند أكبر سوق للرقيق المجلوب من منطقة البلغار فيها خير رقيق ما وراء النهر، وكانت مركزًا لتدريب الرقيق وتهذيبهم. المقدسى: أحسن التقاسيم ص325.

(3) المسالك والممالك ص45.

(4) المقدسى: أحسن التقاسيم ص242.

(5) الكندى: الولاة والقضاة ص338.

(6) من المعروف أن كثيرًا من الخلفاء العباسيين من أمهات أولاد فكانت «شجاع» أم الخليفة المتوكل خوارزمية والسيدة «أم المقتدر» رومية وكذلك كانت أم الخليفة المستكفى. السيوطى: تاريخ الخلفاء ص253. مسكويه: تجارب الأمم جـ1 ص247. الصولى: أخبار الراضى بالله والمتوفى لله ص26.

(7) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ص42.

وكان الرجال يغارون على الحرائر أكثر من غيرتهم على الجوارى، فكانت الجوارى سافرات. وعنى تجار الرقيق بتعليم الجوارى فقد كان علم الجارية وأدبها يقوم فى سوق الرقيق بأكثر مما يقوم بدنها، ولذا برزت بين الجوارى أديبات عالمات بفنون الشعر والغناء[1]. وكانت فى أحياء بغداد بيوت أعدت لسماع غناء الجوارى وقد بلغ عدد الجوارى اللاتى احترفن الغناء فى بغداد وحدها أربعمائة وستين جارية[2].

وكذلك انتشر فى المجتمع العراقى الغلمان من الروم والصقالبة والسودان[3] وكان أرق العبيد مقاما من يشتغل منهم بالجندية وقد ترقى بعضهم، فأصبحوا قوادًا، استعان بهم الأمراء فى حروبهم، كما اشتغل كثير من الأرقاء فى الصناعة والتجارة والفلاحة كمعاونين لسادتهم. وقد ازدادت أعدادهم منذ القرن الثالث الهجرى، حيث ظهرت طبقة جديدة من الأثرياء خاصة أصحاب الإقطاع الذين استخدموا أعدادًا كبيرة من الرقيق السود المجلوبين من الصومال وزنجبار فى إصلاح الأراضى البور وفى غيرها من أعمال الزراعة[4].

---

(1) أبو الفرج الأصفهانى: كتاب الأغانى جـ18 ص175.

(2) أبو حيان التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة جـ2 ص183.

(3) يذكر أبن الأثير مدى ثقة عضد الدولة البويهى بغلامه الأسود "شكرا" حتى كان "مستوليًا على جميع أموره". الكامل جـ9 ص39. كما يذكر شدة حزن الأمير البويهى بختيار على غلامه التركى حين أسر فى إحدى المعارك "وزعم أن فجيعته بهذا الغلام فوق فجيعته بالمملكة والانسلاخ منها ومن النعمة". الكامل جـ8 ص495. مسكويه: تجارب الأمم جـ6 ص469.

(4) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ7 ص546.

ومن المعروف أن العبيد كانوا قد أشعلوا ثورة هائلة فى العراق استمرت أكثر من أربع عشرة سنة (255 ـ 270هـ) حيث قام العبيد بالثورة فى منطقة البصرة وواسط وانضمت إليهم جماعات من الهاربين من القرى والمدن المجاورة فرارًا من سوء ما عانوه من أوضاع اقتصادية واجتماعية وقادهم «على بن محمد» وهو أحد الفرس الذى ادعى أنه منتسب إلى «على زين العابدين بن الحسين بن على» وجهر بمبادئ الخوارج التى تنادى بأن الخلافة حق لكل مسلم عالم بالكتاب والسنة دون أى شروط أخرى. ورفع شعار تحرير العبيد ولقيت دعوته قبولا لدى العبيد فى العراق فاستولى على البصرة سنة 257هـ ثم واسط وتولى «الموفق» أخو الخليفة المعتمد محاربتهم وأجلاهم عن الأهواز وحاصر=

6 ـ أهل الذمة

ويقصد بهم النصارى واليهود المقيمين فى البلاد الإسلامية، الذين ارتبطوا مع المسلمين بعهد[1].

ويمكننا أن نقدر عدد النصارى فى بغداد فى أوائل القرن الرابع الهجرى ما بين أربعين وخمسين ألفًا[2]. وكان للنصارى رئيسان يعين كل منهما بعهد خاص من الخليفة: أحدهما يُطلق عليه «الجاثليق النسطورى»[3]، وهو رئيس المسيحيين الشرقيين. وثانيهما «بطريق اليعاقبة»، وهؤلاء النصارى كانوا من أتباع الكنيسة «اليعقوبية»، وكان أكثرية النصارى فى

= مدينتهم المختارة، وتم له قمع هذه الحركة التى راح ضحيتها ما يزيد على ألفين وخمسمائة قتيل بعد أن قتل زعيمها. الطبرى جـ1 ص176. ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص227. ابن الأثير: الكامل جـ7 ص73 ـ 76. السيوطى: تاريخ الخلفاء ص242،

Muir: the Caliphate P. 545-546.

(1) يذكر متز أن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوربا التى كانت كلها على المسيحية فى العصور الوسطى، وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين وأولئك هم "أهل الذمة" على أنه كان فى الدولة الإسلامية ما يضمن لكل ديانة من ديانات أهل الذمة كيانها الخاص، فكان لا يجوز للمسيحى أن يتهود، ولا لليهودى أن يتنصر، ولا يكون تغيير الدين إلا إذا كان دخولا فى الإسلام". متز: الحضارة الإسلامية جـ1 ص44.

وقد فرض المسلمون على أهل الذمة "الجزية" فقد ثبتت بنص القرآن الكريم فى سورة التوبة ‹qŒG»% ‘B’ł s¤ß ˇ c qŸ ˇ wr…Łq r"!$P§m$B bq¤ł’t wr˝‰Fy$’Qq ¤$/ wr«!$/ c qŽ¤Bs³ w œ %!$. Æ c r³ »„ Nłdr7 ‘ ³p ¯f¤$#q Ł³4łm =»F 6 ¤$#q²r¤ œ %!$

وكانت الجزية تؤخذ على أقساط، وكانت على ثلاث فئات فئة للغنى وفئة لمتوسطى الحال وفئة للفقراء. الجهشيارى: كتاب الوزراء ص218. الماوردى: الأحكام السلطانية ص138. أبو يوسف: كتاب الخراج ص122.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض ص156.

(3) كان بين المذهب النسطورى واليعقوبى خلافات جوهرية أساسها الاختلاف فى وجهة النظر الخاصة بطبيعة المسيح، وكان فى بغداد حى يسمى دير الروم وقد أقام النصارى فى الحى كنيسة على مذهب النسطورية.

Hitti. History of the Arabs P. 355.

العراق من طائفة «النسطورية»، لهذا نال رئيسهم المعروف بالجاثليق حق الإقامة فى بغداد، الأمر الذى سعى اليعاقبة للوصول إليه ولكنهم باءوا بالفشل[1].

وكان لليهود زعيم يدينون له بالطاعة والولاء، وكان يطلق عليه فى بغداد "رأس الجالوت"، وكان يتولى الإشراف على أهل ملته وجمع الضرائب منهم، فيرسل نصفها إلى بيت المال ويستبقى لنفسه النصف الآخر. وقد اشتغل أكثر اليهود بأعمال التجارة والصيرفة والطب[2].

وكانت الجزية التى يدفعها النصارى تنقسم إلى ثلاث فئات؛ فيدفع الغنى ثمانية وأربعين درهمًا، والمتوسط أربعة وعشرين، والفقير اثنى عشر درهمًا. وكانت تجبى من أهل الذمة فى العراق مقسطة فى كل شهر[3]. وفى عام 366هـ أصدر الخليفة الطائع أمر بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة فى المحرم من كل سنة، وكان يعفى منها النساء والأطفال والشيوخ ورجال الكنيسة والرهبان[4]، وكان يعطى دافع الجزية براءة وإيصالا يثبت تأديته لها[5].

وقد انتشر اليهود فى العراق خاصة فى القرى والمدن الواقعة بين «نينوى» و«دجلة» ويذكر القفطى[6] "أن اليهود فى أوائل القرن الرابع الهجرى كانوا أكثر

---

(1) Hitti: History of the Arabs P. 355.

(2) أبو يوسف: كتاب الخراج ص69. المقدسى: أحسن التقاسيم ص183.

(3) يحيى بن آدم: كتاب الخراج ص56.

(4) رسائل الصابى ص112.

(5) المسعودى: مروج الذهب جـ9 ص14 ، 15. ويذكر «يحيى بن سعيد» أن الرهبان والأساقفة فى مصر استغاثوا بالخليفة المقتدر حين أخذت الجزية من الرهبان بقوله: "أخذ الرهبان والأساقفة بأداء الجزية، فأخذت الجزية منهم ومن الضعفاء والمساكين ومن جميع الديارات بأسفل مصر والصعيد، ومن رهبان طور سيناء، وسافر قوم من الرهبان إلى العراق، واستغاثوا بالخليفة المقتدر فكتب لهم ألا تؤخذ الجزية من الرهبان ولا من الأساقفة... وأن تجرى أمور على ما كانوا عليه". تاريخ يحيى بن سعيد ص81.

(6) أخبار الحكماء ص194.

أهل مدينتى «سورا» و«نهر سلك» من بين مدن العراق الأخرى. وكان ببغداد ألف يهودى".

وقد احتفظ النصارى بنظمهم الخاصة فى الحياة، كما احتفظوا بكنائسهم وأديرتهم المنتشرة فى أنحاء العراق سواء كانت لليعاقبة أو النساطرة[1]، حيث كانوا يمارسون بها شعائرهم الدينية فى أمن وطمأنينة. فقد ظفر النصارى واليهود بتسامح المسلمين، فلم تمس حرية إقامة شعائرهم الدينية، وسمح لهم بتجديد كنائسهم، وببناء كنائس جديدة، وقد خيروا بين الاحتكام إلى محاكمهم الكنسية أو اللجوء إلى قضاة المسلمين[2].

وكان الخلفاء العباسيون يحضرون احتفالات أهل الذمة الدينية ويشتركون فى إحياء أعيادهم وحثوا على حمايتهم وحسن معاملتهم[3]. وحينما شرع عضد الدولة البويهى فى عمارة بغداد سنة 369هـ ، أذن لوزيره «نصر بن هارون» ـ وكان نصرانيا ـ فى عمارة الكنائس والأديرة لأهل ملته، وإطلاق الأموال لفقرائهم[4].

غير أن كنائس النصارى وبيع اليهود كانت تتعرض فى أوقات الاضطرابات والفتن إلى النهب شأنها شأن بقية مرافق الدولة. ففى سنة 392هـ ثار العامة بالنصارى فى بغداد لمقتل أحد المسلمين فقاموا بإحراق كنيسة ونهبوا ما بها[5].

---

(1) Hitti: History of the Arabs. P. 355.

(2) الكندى: الولاة والقضاة ص351، 390.
غير أن لجوء الذمى إلى قضاء المسلمين لم يكن يلقى قبولا لدى الكنيسة، لذلك ألف «تيموتيس» حوالى عام (300هـ / 815م) كتابا فى الأحكام القضائية المسيحية لكى يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون إلى المحاكم غير النصرانية. ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطاركة جـ1 ص108. وقد أجاز بعض فقهاء المسلمين لجوء أهل الذمة للقضاء لدى محاكمهم الخاصة "وإن كان العرف به جاريا فهو تقليد زعامة ورياسة وليس تقليد حكم وقضاء، وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له، وإذا امتنعوا عن التحاكم إليه لم يجبروا على ذلك فإذا رجعوا إلى قاضى الإسلام فإنه يقضى بينهم بحكم الإسلام لأنه يكون عليهم أنفذ ولهم ألزم". الماوردى: الأحكام السلطانية ص108 ، 109.

(3) رسائل الصاحب بن عباد ص56.

(4) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص518. ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص295.

(5) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص319. ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص330.

وحين قامت الفتنة فى بغداد سنة 423هـ وعاث اللصوص والعيارون فى أزقتها فسادًا سرقوا عدة كنائس للنصارى[1].

وهذه الحوادث القليلة لا تعبر عن سياسة الحكومة البويهية تجاه النصارى، فقد عَامَلَ أمراء بنى بويه أهل الذمة معاملة طيبة، خاصة فيما يتعلق بحرية ممارسة شعائرهم الدينية وفى المسائل المالية[2]. وكان أهل الذمة يعالجون فى مارستانات (مستشفيات) بغداد ويُعاملون معاملة المسلمين[3]. كما امتلك أهل الذمة الضياع والأراضى الواسعة[4]، وشغلوا كثيرًا من مناصب الدولة، وأصبح منهم الكتاب والوزراء وكبار رجال الدولة، وعملوا فى دور الخلافة وفى القصور البويهية؛ فقد أناب الأمير البويهى عز الدولة بختيار عنه «أبا العلاء صاعد بن ثابت النصرانى»[5] فى أمر بغداد حين ذهب عز الدولة إلى البصرة. كما اتخذ الخليفة الطائع (363 ـ 381هـ) كاتبًا نصرانيًّا. كما أسند عضد البويهى الوزارة[6] إلى «نصر

---

(1) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص319. كما يذكر حادثة تبين استياء المسلمين من بعض عادات أهل الذمة واستهجانهم لها فيذكر أنه حين أخرجت جنازة ابنه «أبى نوح الأهوازى» الطبيب النصرانى فأخرجت جنازتها نهارًا ومعها الطبول والنوائح والزمر والرهبان والصلبان والشموع فقام رجل من الهاشميين فأنكر ذلك ورجم الجنازة، فوثب أحد الغلمان بالهاشمى فضربه بدبوس على رأسه فشجه فسال دمه، وهرب النصارى بالجنازة إلى بيعة باب الروم، فتبعهم المسلمون ونهبوا البيعة، وأكثر دور النصارى المجاورة لها، وثارت الفتنة بين غلمان «أبى الهيجاء» وبين العامة، ورفعت المصاحف فى الأسواق وغلقت أبواب الجوامع، وقصد الناس إلى دار الخليفة على سبيل الاستنفار، فطلب الخليفة الكاتب من المناصح فامتنع فغاظ الخليفة امتناعه.. وجمع الهاشميين إلى داره واجتمعت العوام فى يوم الجمعة، وقصدوا دار المناصح، فدفع غلمانه رجلا ذكر أنه علوى فزاد الشناعة وامتنع الناس من صلاة الجمعة. ابن الجوزى: المنتظم ص159 ، 160.

(2) رسائل الصاحب بن عباد ص48.

(3) القفطى: أخبار الحكماء ص194. كما كانت تركة المتوفى من أهل الذمة دون وارث ترد إلى أهل ملته، بينما كانت تركة المسلم الذى يتوفى دون وريث ترد إلى بيت المال. الجهشيارى: كتاب الوزراء ص248

(4) يذكر الجاحظ "إن النصارى اتخذوا البراذين الشهرية والخيل ولبسوا الملحم والمطبقة، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلى". كما يذكر أن أغلب أطباء القصور فى بغداد كانوا نصارى. رسائل الجاحظ: رسالة فى الرد على النصارى ص16 ، 17.

(5) مسكويه: تجارب الأمم جـ6 ص310.

(6) مسكويه: تجارب الأمم جـ6 ص115. ابن الأثير: الكامل جـ8 ص518.

بن هارون» وكان نصرانيًا[1]. وفى عهده تمت عمارة الكنائس والأديرة فى العراق وأطلقت الأموال لفقراء النصارى. كما برز من أهل الذمة فى ميادين العلم والأدب مشاهير منهم «أبو إسحاق الصابى» (320 ـ 384هـ) الذى يُعد من أشهر رجال الأدب فى عصره، الذى قال عنه الثعالبى: "لم يهده الله إلى الإسلام، كما هداه لمحاسن الكلام... وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ويخدم الأكابر أرفع خدمة... ويحفظ القرآن حفظا يدور على طرف لسانه. وسن قلمه"[2]. وكان ينوب عن الوزير «أبى محمد المهلبى» فى رئاسة ديوان الإنشاء وأمور الوزارة[3].

ومنذ القرن الرابع الهجرى اُعتبر المجوس أهل ذمة بعد أن اعترفت الدولة العباسية بهم بجانب اليهود والنصارى، وكان يمثلهم فى قصر الخليفة رئيس دينى، وكان شأنهم شأن غيرهم من طوائف أهل الذمة فعوملوا معاملة حسنة وتولوا المناصب الكبرى ومنهم من تقرَّب إلى الأمراء وصار من خاصتهم[4].

---

(1) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص218 ، 219. مسكويه: تجارب الأمم جـ6 ص511. ياقوت: معجم الأدباء جـ2 ص21.

(2) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص219. ياقوت: معجم الأدباء جـ2 ص28.

(3) ياقوت: معجم الأدباء جـ2 ص28.

(4) المجوس هم أتباع ديانة "زرادشت" ديانة الفرس القديمة. ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص343. ويذكر ابن العبرى أنه حين شبت فتنة بين عامة شيراز من المسلمين والمجوس سنة 369هـ ، ونهبت فيها دور المجوس وضربوا وقتل منهم جماعة فما كان من عضد الدولة إلا أن أرسل من جمع له من تسبب فى ذلك "وضربهم وبالغ فى تأديبهم". مختصر تاريخ الدول جـ1 ص343.

الباب

الثالث

مظاهر الحياة الاجتماعية

مظاهر الحياة الاجتماعية

قصور الخلفاء والأمراء، ودور عامة السكان

اشتهرت بغداد بقصورها الفخمة الواسعة ذات الأروقة؛ إذ اهتم الخلفاء العباسيون بتشييد القصور[1]، وإحاطتها بحدائق ومتنزهات، وزخرفتها من الداخل والخارج بأنواع الزخارف المذهبة والمرصعة بالجواهر والفرش الفاخرة، من الوشى والديباج[2]، فكانت قصور الخلفاء تمتد على مساحات كبيرة وتشتمل على دور واسعة ذات قباب وأروقة، وكانت هذه الأروقة تسمى بالأربعينى أو الستينى أو السبعينى على حسب عدد الغلمان الذين يجتمعون فى كل منها[3]. واشتملت هذه القصور على حدائق وبساتين، كما جلب إلى

---

(1) من هذه القصور قصر الذهب الذى بناه «أبو جعفر المنصور» فى وسط بغداد، وقصره الذى بناه على الشاطئ الغربى لنهر دجلة، والذى بلغ فى فخامته وروعة حدائقه ومسطحاته الخضراء أن أطلق عليه قصر الخلد تشبيهًا له بجنة الخلد، وكان به "مجلس الأمير" الذى فرش بالديباج والبسط وتتوسطه قضبان من الذهب، وبه مقاعد مرصعة باللؤلؤ، كذلك بنى «هارون الرشيد» قصرًا على نهر دجلة زين بالديباج وأساطين الرخام، وبنى الخليفة «الواثق» فى مدينة سامراء عدة قصور كان من أعظمها قصر الهارونى ذو القبة المرتفعة المحلاة بزخارف من الذهب واللازورد. الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ1 ص75 ـ 80. كما كان قصر الجعفرى الذى شيده الخليفة المتوكل فى مدينته الجديدة الجعفرية التى تقع إلى الشمال من سامراء آية من آيات الفن، تكلف بناؤه ما يزيد عن مليون دينار. المسعودى: مروج الذهب جـ1 ص369.

(2) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ1 ص75. الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ10 ص51 ، 52. المسعودى: مروج الذهب جـ2 ص279 ، 280.

(3) Hitti: History of the Arabs. 852.

هذه الحدائق أنواع الحيوانات للتسلية والزينة[1]. فازدحمت بغداد بالقصور التى شيدها الخلفاء، منها: دار الخلافة التى شيدها «المنصور»[2]. وقصر الخلد، وقصر الرصافة، وقصور البرامكة، وقصر الثريا، قصر التاج الذى اتخذه الخليفة العباسى «القادر» مقرًا له، وكان به مجلس للقضاة والأشراف والأعيان[3]، هذا بجانب الدار التى بناها «المقتدر» بالدار المعظمة الخليفية وسميت بدار الشجرة[4]. وكانت هذه القصور مبنية من الآجر ومغطاة بالكلس.

وقد سكن الخلفاء العباسيون طوال مدة حكم البويهيين هذه القصور التى شيدها الخلفاء السابقون، وأضاف بعضهم إليها دورًا جديدة، وسمحوا لخواصهم من رجال البلاط والحاشية بالإقامة فيها.

فشيد الخليفة «المطيع لله» (334 ـ 363هـ) دار الطواريس والدار المربعة والدار المثمنة، ولعله بنى أيضًا القصر المعروف "بدار شرشير" وأحاطها بالبساتين وملأ حدائقها بالحيوانات[5].

وقد نقص عدد حجاب قصر الخلافة واقتصر على ستين حاجبًا، وخصص «معز الدولة» البويهى لنفقة الخليفة ألفى درهم يوميًا[6]، بعد أن كانت دار الخلافة تنفق فى اليوم سبعة آلاف دينار أيام الخليفة العباسى «المعتضد»[7].

---

(1) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص391.
(2) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ1 ص74 ، 75. المسعودى: مروج الذهب جـ1 ص369.
(3) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص162.
(4) سميت دار الشجرة لأنه كان "فى بركتها شجرة صنعت من الذهب والفضة". "فلها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصنًا لكل منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من أنواع الصفير والهدير وفى جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارسًا على خمسة عشر فرسًا، مثله عن يسار البركة وفى أيديهم المطارد يتحركون على خط واحد، فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد". ياقوت: معجم البلدان جـ4 ص9.
(5) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص391.
(6) مسكويه: تجارب الأمم جـ6 ص125.
(7) الجهشيارى: كتاب الوزراء ص10.

ومع فقدان هيبة الخليفة العباسى خلال عهد نفوذ البويهيين كانت دار الخلافة تتعرض لنهب العامة بعد عزل الخليفة أو فى فترات الاضطراب والفتن. فحين خلع «بهاء الدولة» البويهى الخليفة «الطائع» سنة 381هـ . "أخذ ما فى دار الخليفة من الذخائر[1]". وفى سنة 423هـ جلس الأمير البويهى «جلال الدولة» مع ثلاثة من رجال حاشيته ومغنياته يتسامرون فى بستان الخليفة «القائم بأمر الله» غير عابئين بحرمة الخلافة[2].

وقد استقر «معز الدولة» البويهى فى قصر «مؤنس الخادم» حتى شيد له القصر الذى عرف "بالدار المعزية" وهو أول القصور البويهية التى شيدت فى بغداد، وكان موقع هذا القصر فى محلة الشماسية المجاورة لدار الروم فى أعلى مدينة بغداد على ضفة نهر دجلة اليسرى[3]. ويذكر مسكويه أنه "لما علم الوزير «المهلبى» أنه لم يكن من البناء بد فيجب أن يكون متصلا ببغداد من أعاليها ليكون هواؤه وماؤه أصح وأنظف أنزله (يقصد معز

---

(1) ابن الأثير: الكامل جـ9 ص29. السيوطى: تاريخ الخلفاء ص272. وقد وصف الشريف الرضى خلع الخليفة الطائع ونهب قصره وكيف حل الهوان به فى قصيدة وصف فيها كيف نجا من قصر الخليفة بقوله:

مرقت منها مروق النجم منكدرا	وقد تلاقت مصاريع الردى دونى
وكنت أول طلاع ثنيتها	ومن ورائى شر غير مأمون
أصبحت أرحم من كنت أغبطه	لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان يضحكنى	يا قرب ما كان بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانية	قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ديوان الشريف الرضى جـ2 ص867.

(2) يذكر ابن الجوزى أن جلال الدولة "نزل من داره وانحدر فى سميرية (سفينة صغيرة) ومعه ثلاثة نفر من حاشيته وصعد إلى بستان دار الخلافة وجلس مع بعض مغنياته تحت شجرة وأمر الزامر أن يزمر، وعرف الخليفة بما حدث فشق عليه ذلك وأزعجه فأرسل للسلطان (الأمير البويهى جلال الدولة) قاضيًا وحاجبًا فلم يقبل كلامهما، ولم يمتنع فتغيظ الخليفة وأرسل له كلاما غليظًا". المنتظم ص185.

(3) مما عجل ببناء هذه الدار أن معز الدولة مرض بمرض شفى منه بعد طول عناء، وقرر مغادرة بغداد غير أن أصحابه أشاروا عليه بالمقام بها وأن يبنى قصرًا فى أعلاها حيث الهواء أرق والماء أصفى وأعذب". ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص2. ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص227. ابن خلدون: العبر جـ3 ص425.

الدولة) فى البستان المعروف بالصميرى وهو فى أعلى بغداد من الجانب الشرقى بقصر فرج، وأخذ فى هدم[1] ما يليه من العقارات وابتياعها من أهلها.. وأصلح ميدانًا على طول دجلة.. وقلع الأبواب الحديد التى على المدينة (مدينة أبى جعفر المنصور) والتى بالرصافة.. ونقلها إلى داره، ونقض قصور الخلافة بسامراء، وبنى داره بالآجر الذى استعمله.. ووثق البناء.. وبالغ فى الإحكام وجلب له البنائين الحذاق المشهورين من جميع البلدان الكبار من الأهواز والموصل وأصبهان وغيرها، ونزل سفلا فى الأرض لبعض الأساسات ستة وثلاثين ذراعا، ورفعها إلى وجه الأرض.. إلى أن ارتفع فوق الأرض بأذرع، ولزمه على هذا البناء إلى أن مات ثلاثة عشر ألف ألف درهم، صادر فيها أسبابه، سوى ما لم يشتره من الآلات التى ذكرناها والتى لم نذكرها، وكان مقيمًا طول المدة فى بستان الصميرى ثم انتقل على الدار التى بناها فى يوم الاثنين لثمان بقين من ذى القعدة سنة 350هـ قبل أن يستتم بناؤها"[2].

وقد روعى فى بناء هذه الدار الفخامة والاتساع وإتقان البناء، لحمايتها من أمواج النهر...". واشتملت على ميدان فسيح، وسور يحيط القصر والميدان، وأساس توغل فى الأرض سفلا لتدعيم صرح البناء وتمكين بنائه إلى ما يقرب من خمسة عشر مترًا، علاوة على بناء (مسناة) سور حاجز يقى البناء شر طغيان البحر، ويمنع عنها تسرب مياهه إلى داخلها، وكان طول ما بنى منه ألفا وخمسمائة ذراع وعرضها نيف وسبعون ذراعًا من الآجر[3] سوى الدستاهيجات (الدعائم التى تبنى بجوار السور لتدعيمها)، ولم يكمل معز الدولة من مسناتها إلا جزء، وقد أراد أن يصل بالمسناة لدار الصميرى غير أن المنية عاجلته فتوفى سنة 356هـ دون أن يكملها". وقد زود معز الدولة داره بالإصطبلات

---

(1) "لحق الناس ضرر شديد لهدمه ما يلى داره من عقارات ابتاعها من أهاليها مكرهين". الذهبى: تاريخ الإسلام ص108. ويذكر مسكويه أنه وثق بناء داره بالآلات الجيدة والحصى مبالغا فى الإحكام، وجلب إليه البناءون من الحذاق المشهورين من جميع البلدان الكبار من الأهواز والموصل وأصبهان وبلدان الجبل وغيرها. تجارب الأمم جـ2 ص183 "أبو الفداء: المختصر جـ4 ص55.

(2) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص183.

(3) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص182 ، 183. ابن الأثير: الكامل جـ9 ص136.

الواسعة التى تناسب روعة البناء، أما عن ميدانها فكان ميدانًا فسيحًا على دجلة متصلا بين القصر والبستان حيث يجمعهما سور واحد. وقد كانت هذه الدار ـ التى استجمع فيها صاحبها كل أسباب الراحة والرخاء ـ محصنة بأبواب سميكة تقف سدًّا منيعًا فى سبيل من تسول له نفسه اقتحامها وقد زينت سقوفها "خاصة السقف الذى كان يعلو بيت المائدة فكان مزخرفًا بالذهب، كما بنى بالدار (روشا) بديعًا[1]". أى منظرة تشرف على داخل البيت وخارجه.

وبالرغم من مبالغة المؤرخين[2] فى تقدير نفقات بناء هذا القصر إلا أن هذه المبالغ التى أنفقت على بنائه تبين مدى فخامة القصر واتساعه، وجمال بنائه؛ فقد حمل إليه أفخم ما اشتملت عليه دور الخلفاء السابقين وقصورهم سواء كانت هذه القصور فى بغداد أو سامرا[3]. "فخرب كثيرًا من معالم الخلفاء فى عمارتها[4]". كما أخذت الأراضى من يد ملاكها لإدخالها فى البناء[5]، فضلا عن مصادرة أموالهم، وزيادة الضرائب للإنفاق على الدار والصناع[6].

وقد تميز عهد عضد الدولة البويهى (367 ـ 372هـ) بكثرة ما أنشئ فيه من الأبنية والقصور بعدما تعرضت بغداد للخراب لتوالى الفتن عليها، فعمر مساجدها وأسواقها[7]. وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك فى قوله: "فى سنة 369هـ شرع عضد الدولة فى

---

(1) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص183.

(2) يذكر ابن كثير أن بناء القصر تكلف مليون دينار، البداية والنهاية جـ11 ص237. ويذكر ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص2: أن تكاليف بنائه بلغت ثلاثة عشر مليون درهم. وكذلك ذكر مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص183.

(3) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص2.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص237.

(5) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص183.

(6) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ3 ص327.

(7) ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول ص298. هلال الصابى: رسوم دار الخلافة ص15، ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص117.

عمارة بغداد، وكانت قد خربت بتوالى الفتن عليها"[1]. فقد اهتم بتعميرها وتجميلها وتحسين مجارى الجداول فيها التى تخترقها وتنقل الماء الصالح لشرب أهلها، وسقى حدائقها فجدد ما دثر منها وأعاد حفرها وتسويتها وأقام قناطرها[2]. فقد شيد عضد الدولة فى بغداد قصورًا عدة كما وسع قصر معز الدولة معظمه وأطلق عليه اسم سراى السلطان ولم يبقَ من قصر معز الدولة القديم "غير القسم المعروف بالبيت الستينى، وهو عبارة عن صحن واسع حوله أروقة من ورائها أروقة فى أطرافها قباب معقودة، وتنفتح أبوابه الغربية إلى دجلة وأبوابه الشرقية إلى صحن خلفه بستان وشجر ونخل[3]".

ويذكر أن الجوزى[4]. "وكان عضد الدولة قد جعل الدار التى فى هذا البيت دار العامة، والبيت برسم جلوس الوزراء، وما يتصل به من الأروقة والقباب مواضع للدواوين، والصحن مناما لديلم النوبة فى ليالى الصيف". أى لقوات الحرس من الديلم وغيرهم الذى يتناوبون الحراسة. وقد ألحق بالقصر[5] بستانًا، أنفق عليه عضد الدولة

---

(1) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص704.

(2) أشار إلى ذلك مسكويه بقوله: "كان ببغداد أنهار كثيرة مثل نهر البزازين ونهر الرجاح... فاندفنت مجاريها وعفت رسومها ونشأ قرن بعد قرن من الناس لا يعرفونها واضطر الضعفاء أن يشربوا مياه الآبار الثقيلة، أو يتكلفوا حمل الماء من دجلة فى المسافات الطويلة فأمر بحفر عمدانها... كذلك اهتم بإعادة بناء جسر بغداد الرئيسى على دجلة وإصلاحه بعد أن اعتراه التلف وكثرت فى استعماله الخطورة فإنه لا يجتاز عليه إلا مخاطر بنفسه لاسيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحم الناس عليه". تجارب الأمم جـ2 ص183.

(3) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص77.

(4) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص77.

(5) يذكر الخطيب البغدادى أن عضد الدولة سماه دار المملكة وقد أنفق على بنائه أكثر من مليون درهم وكانت فى الأصل دارا لسبكتكين حاجب معز الدولة ونسبت إليه، فنقض عضد الدولة أكثرها ولم يستبق إلا البيت الستينى وأصبحت أبواب القصر مطلة على دجلة أبوابه الشرقية تفضى إلى صحن مطل على بستان عظيم أقامه فى الميدان السبكتكينى الذى وسعه عضد الدولة بابتياعه دورا صغارا وكبارا أضافها إلى الميدان بعد أن نقضها ورمى حيطانها بالفيلة تخفيفا للنفقات وبنى على الجميع مسناه ثم نقل الماء إلى البستان بصعوبة بالغة حيث أمر بحفر النهر سنة 371هـ، وكان مقدار ما أنفقه على البستان والنهر خمسة ملايين درهم، وكان عازمًا على أن يهدم الدور التى بين داره وبين الزاهر، ويصل الدار بالزاهر فمات قبل ذلك وبقى دار المملكة يرمم ويشغل حتى عهد جلال الدولة الذى جعل البيت الستينى إصطبلا لدوابه. ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص77.

"مالا كثيرًا لحفره وقلع الحجارة من الميدان، وإعداد الأرض بالتراب والرمال لتكون صالحة للنبات"[1] بينما أمر عضد الدولة بشراء الدور التى تقع أمام القصر ونقضها مستخدمًا الفيلة فى ذلك، ثم استصلحها وألحقها بالبستان الجديد الذى أنشأه، كما ضاعف مساحة الميدان الذى ـ سمى بالميدان السبكتكينى[2] ـ "ثم استدعى المهندسين وأمرهم بشق نهر يسبح ماؤه إلى داره". واستخدم الفيلة فداست الأرض المعلاة والدور المنقوضة التى أصبحت ضمن البستان وقد قدرت تكاليف هذه الأعمال بخمسة مليون درهم[3].

وظل قصر عضد الدولة المقر الرسمى للأمراء البويهيين الذين أعقبوه، على أن جلال الدولة قام ببعض التغييرات والتعديلات فيه[4].

أما دور الأغنياء من سكان العراق فقد كانت تتألف من عدة طوابق، وقد حليت جدرانها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة وكانت تبنى بالآجر المغطى بالكلس، وتشتمل على ثلاثة أقسام: قسم خاص بالنساء، والثانى للخدم، وقسم ثالث خاص بالضيافة يطلق عليه اسم «مجالس السلام»، ويحيط بالدار سور. وكان الأغنياء يهتمون بغرس الأزهار فى جنبات دورهم وبإقامة الحدائق حولها، ويتخذون لأنفسهم بها مقاعد بين الماء[5] المتدفق من تماثيل السباع وأنواع الطيور، كما اتخذوا بالدور مراوح تجذب باليد

---

(1) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص78.

(2) المصدر السابق نفس الصفحة، سمى الميدان السبكتكينى نسبة إلى سبكتكين حاجب معز الدولة، الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ1 ص106.

(3) المصدر السابق نفس الصفحة.

(4) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص78، أعاد عضد الدولة عمارة مدينة بغداد بعد أن أصابها الإهمال بعد تحول الخلفاء إلى مدينتى سامراء والجعفرية، وأمر أصحاب الدور بعمارتها وأمد غير القادرين منهم بالمال، وأقام الميادين والمتنزهات فامتلأت "بالزهر والخضرة والعمارة بعد أن كانت مأوى للكلاب ومطارح الجيف والأقذار". كما أقام جسر بغداد ووكل به الحفظة والحراس وأعاد بناء مشهد على والحسين، وأنشأ البيمارستان المنسوب إليه فى الجانب الغربى من بغداد سنة 372هـ . مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص183. ابن الأثير: الكامل جـ8 ص255. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص141.

(5) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص78.

(6) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ1 ص75.

فتنعش جو الحجرة فى أيام الحر، وهم فى ذلك يتشبهون بقصور الأمراء والوزراء. وقد وصفهم الجاحظ[1] بقوله إنهم كانوا "فى أفنيتهم كالملوك على أسرتهم".

وقد أمر عضد الدولة البويهى أهل الدور والمساكن على جانبى دجلة بعمارة مسناتها وتجديدها بعد أن كانت خرابًا، كما ألزم أصحاب الأملاك التى خرجت بإعادة عمارتها، وأمر بأن "يغرس فى كل خراب لا صاحب له غرس[2]"، ومن قصرت يده أقرضه من بيت المال وغرس هو الزاهر المتوسط الشرقى من بغداد[3] وهى دار «أبى مقلة» وقد صارت تلا، وأمر بحفر الأنهار التى اندرست وعمل عليها أرحاء[4]، كما أعاد عمارة بستان دار العباس بن الحسين[5] بعد أن كانت خرابًا". واهتم بتعبيد الطرق لضمان راحة المسافرين[6]. ولم تشهم بغداد ولا بقية مدن العراق إصلاحات جديرة بالذكر بعد موت عضد الدولة سوى بعض الإصلاحات النادرة لبعض أمراء بنى بويه كشرف الدولة الذى أشار أبو شجاع إلى إصلاحاته فى حوادث سنة 377 حين طالب العمال "بعمل المصالح وأخذهم بإقامة العمارات[7]"

---

(1) مجموعة رسائل الجاحظ ص156.

(2) يرجع سبب خراب هذه الدور أن بختيار بن معز الدولة كان قد نقض دار أبى الفضل العباس بن الحسين الشيرازى "ولم يكن لها نظير فى بغداد فى الاتساع والحسن، وكان قد اتخذ فيها بستانا... مملوءًا بالنخيل والأشجار والرياض والأنوار وطرائف الغروس الغريبة وأنشأ فيها المجالس البهية والمساكن الفسيحة فارتفع له من أثمان النقض جملة استكبرها، واستطاب بعد ذلك بيع الأنقاض لهدم المنازل الجليلة التى لا يمكن أو يصعب إعادتها". مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص405. ابن الأثير: الكامل جـ8 ص704.

(3) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص113. مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص405.

(4) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص114.

(5) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص405.

(6) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص704: ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص114. ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول. وقد أمر ببناء عمارة عظيمة على قبر الإمام على بن أبى طالب فى مدينة النجف، وأنفق عليها أموالا طائلة، "وستر حيطانها من الداخل بخشب الساج المنقوش". ابن الأثير: الكامل جـ8 ص704. وعمَّر مسجد الحسين بن على بكربلاء. وفى سنة 368هـ بنى سور مدينة سامراء وأقام عمارة على قبرى الإمامين على الهادى والحسن العسكرى وهما الإمامان العاشر والحادى عشر من أئمة الشيعة الاثنا عشرية، وكان معز الدولة قد سبقه بإقامة العمارة على قبريهما منذ سنة 337هـ .

(7) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ص137.

وكانت قصور الأمراء والوزراء ودور الأغنياء تضاء بمصابيح ذات أرجل مصنوعة من الفخار والنحاس وتشعل بدهن الخروع، كما كانت تعلق القناديل المتقنة الصنع فى أسقف الدور بينما كان يستخدم المشعل فى المجالس الكبيرة[1]، كما استخدموا الشموع التى كانت تخلط بأنواع العطور[2].

أما دور متوسطى الحال من السكان فكانت تتكون من طابق واحد، وتطل نوافذها على الطرقات، ولم يكن لها سور يحيط بها، ولا حمامات خاصة فكان سكانها يلجأون إلى الحمامات العامة.

ويذكر «هلال الصابى»[3] أن عدد الحمامات للعامة بلغت فى عصره ما يزيد عن مائة وخمسين حماما فى بغداد ويذكر ابن الجوزى أن عدد الحمامات العامة فى بغداد بلغ فى عهده 170 حمامًا[4]. ومن الملاحظ تناقص عدد الحمامات العامة، وتزايد عدد الحمامات الملحقة بالدور فى العهد البويهى، فقد أخذ عدد الحمامات العامة منذ بداية الحكم البويهى فى العراق فى التناقص حتى بلغ عددها فى عهد عضد الدولة خمسة آلاف حمام[5].

الملابس

اختلفت ملابس الرجال وتباينت بحسب مكانة الفرد الاجتماعية، والمهنة التى يعمل بها.

---

(1) اشتهر بصناعة القناديل فى عهد عضد الدولة على بن عبد الله الأديب الذى صنع قنديلا لمشهد موسى بن جعفر فى الكاظمية فى غاية الإتقان. ياقوت: معجم الأدباء جـ5 ص238.

(2) أنفق الوزير أبو طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة البويهى مبالغ كبيرة فى استخدام هذا النوع من الشموع. أبو اسحاق الصابى: المختار من رسائل الصابى ص108. ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ2 ص62. ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص61.

(3) الصابى: رسوم دار الخلافة ص20.

(4) ابن الجوزى: مناقب بغداد ص24 . ويذكر اليعقوبى أنه كان بمدينة بغداد عشرة آلاف حمام فضلا عن الحمامات الخاصة بالقصور. كتاب البلدان ص240 ـ 249. ويذكر ابن الجوزى أن حمامات القصور كانت توقد من السحر إلى الفجر. المنتظم جـ7 ص115.

(5) يذكر اليعقوبى أنه كان بمدينة بغداد من قبل عشرة آلاف حمام. اليعقوبى: البلدان ص240 ـ 249. فضلا عن الحمامات الخاصة بالقصور. ويذكر ابن الجوزى أن حمامات القصور كانت توقد من السحر إلى الفجر. المنتظم جـ7 ص115.

وكان الخلفاء يرتدون قباء أسود يبرز من تحته قفطانًا زاهيًا له منطقة مرصعة بالجواهر. وفوق ذلك عباءة سوداء[1]، وقد استعمل الخلفاء لباس "الملحم" وهى ثياب سداها من الحرير، ولحمتها من القطن، تصنع فى بغداد.

وغطوا رءوسهم بقلانس طوال وحولها عمامة ذات لون أسود وهو شعار العباسيين[2].

وكان الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة يقلدون الخلفاء فى ملابسهم، غير أن الفقهاء والقضاة كانوا يرتدون الطيلسان (وهى طرحة توضع على المنكب) والعمامة، مقتدين فى ذلك بالرسول e [3].

وكان زى عامة الناس يشتمل على إزرار وقميص ودراعة وسترة طويلة، وحزام يسمى "قمربند"، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال[4]، غير أنهم كانوا يخلعون الحذاء الخارجى المسمى "الجرموك" عند دخول المساجد أو القصور.

وقد تنافس الأغنياء فى ارتداء الملابس الثمينة، وكانوا يمتلكون صناديق كبيرة تحتوى على كثير من الثياب الفخمة. ويذكر ابن كثير[5] أنه عندما صادر بهاء الدولة

---

(1) كان لغلبة النفوذ الفارسى على الخلافة العباسية فى بادئ الأمر أثره فى ظهور الأزياء ذات الطابع الفارسى، فقد اتخذ الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور القلانس السوداء المخروطية الشكل كما استخدمت الملابس المحلاة بالذهب، وكان الخليفة يتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر. ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ1 ص33.

(2) أصبحت القلانس منذ عهد الخليفة المستعين 248 ـ 252هـ . أصغر حجما من القلانس التى كانت تلبس منذ عهد أبى جعفر المنصور التى كانت تدعم من الداخل بعيدان لتعليتها. أبو الفرج الأصفهانى كتاب الأغانى جـ9 ص121، 430. كما انتشر فى عهده ارتداء الثياب ذات الأكمام الواسعة التى يبلغ عرضها ثلاثة أشبار.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ1 ص33.

(4) ياقوت: معجم الأدباء جـ3 ص254 ، 255.
ويذكر ابن خرذادبه أن لبس الخفاف الحمر كان مستهجنًا. المسالك والممالك ص109. كما كان الرجال يلبسون الجوارب المصنوعة من الصوف أو الجلد أما النساء فكن يلبسن الجوارب المصنوعة من الحرير. الثعالبى: يتيمة الدهر جـ3 ص43. أبو الفرج الأصفهانى: الأغانى جـ6 ص85.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص314.

القاضى بن عبد الجبار سنة 384هـ ، كان جملة ما بيع فى المصادرة ألف طيلسان وألف ثوب معدنى[1].

وكان ارتداء الملابس الحريرية دليل الثراء والترف، وكان «الصاحب بن عباد» كما يذكر الثعالبى[2]. يلبس الخز فى داره ويلبسه جميع من فى داره من الخدم وقد وصف الشاعر «أبو القاسم الزعفران» ذلك بقوله:

وحاشيةُ الدارِ يمشون فى ضُروب مـن الخـزِّ إلا أنـا

وكان اللون الغالب على الثياب اللون الأبيض. ومنذ بداية القرن الرابع الهجرى كان القباء الأسود لباس رجال الدولة الرسمى إلى أن اقتصر ارتداؤه فى أواخر القرن الرابع على الخطباء والمؤذنين[3] . ويذكر المقدسى أن الأقبية والمناطق كانت لباس الخطباء فى عصره[4].

وكان الكتاب يرتدون الدراعات وهى ثياب مشقوقة من الصدر مصنوعة من الصوف ومحلاة بعرر وأزرار[5]، أما غير العلماء من علية القوم فكانوا يلبسون داخل بيوتهم القلنسوة وحدها فوق طاقية صوف مخلوط بالقطن والحرير الأبيض، ثم استعاضوا عنها بطاقية خفيفة بنفسجية اللون. وكان القواد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة، أما الجند فيرتدون سراويل ذات شرائط وتحيط أوساطهم أحزمة عريضة.

وكان الفقراء يلبسون المدرعة[6] وهى ثياب من الصوف الخشن بينما يلبس الفلاحون

---

(1) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ3 ص346. والشاعر أبو القاسم هو «عمر بن إبراهيم» شيخ شعراء العراق ورابطة عقد ندماء الصاحب.

(2) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ص115.

(3) المقدسى: أحسن التقاسيم ص129.

(4) ياقوت: معجم الأدباء جـ3 ص129.

(5) يذكر ياقوت: معجم الأدباء جـ3 ص255. أن أحمد بن على الكاتب المتوفى سنة 402هـ "كان يلبس الطيلسان.. ثم لبس بعد ذلك الدراعة وسلك فى لبسه مذاهب الكتاب القدماء، كان يلبس الخفين المبطنة، ويتعمم العمة الثغرية".

(6) المدرعة (بكسر الميم وسكون الدال وفتح الراء).

الثياب القطنية، أما الزهاد والمتصوفون[1] فيلبسون ثيابًا بسيطة من الصوف الخشن. وكان بعض الفقراء لا يملك ثمن جُبَّة يرتديها، فكان الواحد منهم يبقى طوال الشتاء لا يرتدى سوى غلالة[2] (وهو ثوب رقيق يلبس عادة تحت الثياب). ويروى الخطيب البغدادى أن الفقيه «أحمد بن محمد الأبيوردى» (المتوفى 425هـ) بقى طيلة الشتاء فى بيته لا يخرج منه لأنه لم يكن يملك ثمن جبة يلبسها[3].

أما ثياب النساء فكانت تختلف بحسب أوضاعهن الاجتماعية والاقتصادية، فالثريات اتخذن غطاء الرأس مرصعًا بالجواهر ومحلى بسلاسل ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة[4]. أما نساء الطبقة الوسطى فكن يضعن على رءوسهن حلية مسطحة من الذهب ويلففن حولها عصابة مطرزة باللؤلؤ والزمرد، ويلبسن الخلاخل فى أرجلهن. كما اتخذن ثيابًا ملونة تسمى "القصب". وكن يستخدمن الملابس التى تحلى بزخارف كتابية[5]. وكانت المرأة ترتدى عند الخروج من بيتها عباءة طويلة تغطى جسمها ومن تحتها قميص مشقوق عند الرقبة يغطيه غطاء الرأس الذى يلتف حول الرقبة، وعلى وجهها تضع النقاب.

وكانت أزياء النساء زاهية الألوان، غير أن المسنَّات والأرامل كن يرتدين الثياب البيضاء.

وكانت النساء ترتدى الجوارب الحريرية وينتعلن القباقب أو الزرابيل وهى نوع من الخفاف شاع لبسه بين الجوارى[6].

---

(1) يذكر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ2 ص302: أن أبا بكر الفرغانى الصوفى المتوفى سنة 331هـ "لم يكن يرى أحسن منه ممن يظهر الغنى فى الفقر، وكان يلبس قميصين ورداء وسراويل ونعلا نظيفًا وعمامة، وفى يده مفتاح وليس له بيت، ينطرح فى المساجد".

(2) الأزدى: حكاية أبى القاسم ص72.

(3) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ5 ص51.

(4) يقال إن علية ابنة الخليفة المهدى هى التى ابتكرت هذا الزى كما أن السيدة زبيدة قد اتخذت النعال المرصعة بالجواهر.

(5) كانت الجوارى تطرز الأشعار على ملابسهن. الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ4 ص320. كما كن يقمن باستخدام الخضاب (الحناء) فى تجميل أيديهن وأقدامهن وكن ينقشن عليها أبياتًا من الشعر.

(6) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ4 ص320.

الطعام

تأنق الأمراء البويهيون "فى أصناف الأغذية ومواعيدها، وإعداد الموائد وكيفية تقديمها، ونمط الأكل عليها، فأوجدوا لهم آدابًا ورسومًا متبعة"[1].

وأُلفتْ فى فن الطهو كتب منها كتاب ابن مسكويه[2] "فى تركيب الباجات من الأطعمة أحكم غاية الإحكام، وأتى فيه من أصول علم الطبخ بكل غريب حسن". وقد تضمنت أشعار الشعراء فى القرن الرابع الهجرى وصفًا لكثير من هذه الأطعمة[3]. وقد ذكر الثعالبى ما قاله الأمير البويهى عضد الدولة من وصف لأحد أنواع الأطعمة[4].

وقد ظهر من الأمراء البويهيين من تَشَبَّه فى كرمه بالبرامكة ووزراء المقتدر بالله العباسى منهم «أبو محمد المهلبى» وزير معز الدولة الذى قال عنه التنوخى: "كان رحمه الله من بقايا الكرم، وقد شاهدت له مجلسًا فى شهر رمضان سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة

---

(1) أبو حيان التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة جـ1 ص261. الثعالبى: ثمار القلوب ص478، 479. الصابى: الوزراء ص261، الهمذانى: المقامات ص114.

(2) القفطى: أخبار الحكماء ص331 ـ 332. كما ألف أحمد بن عبد الرحمن بن مندوييه الأصفهانى كتاب "الصناعة والأطعمة" وهو طبيب فى المارستان العضدى. وهو المستشفى التى أسسها الأمير البويهى عضد الدولة. القفطى: تاريخ الحكماء ص77.
كما ألف المسعودى المتوفى سنة 346هـ كتابًا عن "الطعام ووصف آداب الطبيخ ـ الغذاء المطبوخ ـ مما يحتاج التابع إلى معرفته والأديب إلى فهمه من المتولدات إلى معرفة الألوان والمقادير والتوابل والأبزار". المسعودى: مروج الذهب جـ8 ص103.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض ص359، 365. الثعالبى: ثمار القلوب ص488، 490. أبو حيان التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة جـ3 ص28 ـ 31، 51.

(4) ذكر الثعالبى شعرًا لعضد الدولة فى البهطة وهى أرز مطبوخ باللبن والسمن:

بهطة تعجز عن وصفها ... يا مدعى الأوصاف بالزور
كأنها فى لجام مجلوة ... لآلئ فى ماء كافور

الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص217.

كأنه فى مجلس البرامكة، ما شاهدت مثله قط قبله ولا بعده[1]". وقد عرف بتأنقه فى المأكل، فلم يكن يأكل "إلا بملاعق الذهب وما كان يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة"، حيث كان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة ليتناول بها طعامه[2].

وكانت تجلب الفواكه الطازجة للأمراء وخاصتهم من إيران كتمر كازرون "إحدى مدن فارس" المسمى «بالجيلاندار» على الرغم من كثرة تمور العراق[3]. وكان التفاح يجلب إلى بغداد من غزنة وإصطخر[4]. وكان البطيخ يرد إليهم من خوارزم ومرو وتبلغ ثمن الواحدة منه سبعمائة درهم[5]. كما كانت تنقل بواكير الفواكه من شيراز وفارس وخوزستان إلى الأمير البويهى عضد الدولة فى بغداد كل أسبوع مع البريد[6]، وأهمها الخوخ والرمان الذى كان ينتج أفضل أنواعه فى الرى[7].

---

(1) التنوخى: نشوار المحاضرة جـ1 ص69.
وقد نقل عنه أنه قال "والله لأكونن فى دولة الديلم أول من يذكر إن فاتنى أن أكون فى دولة بنى العباس آخر من يذكر". أبو حيان التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة جـ3 ص213.
وفى أوائل القرن الرابع الهجرى كان الوزير أبو الحسن على بن الفرات يدعو إلى طعامه فى كل يوم تسعة من الكتاب "فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة فى الوقت من خير شىء، ثم يجعل فى الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى، ومعه طست زجاج يرمى فيه الثقل فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقدمت الطسوت والأباريق، فغسلوا أيديهم، وأحضرت المائدة مغشاة بديبقى فوق مكبة خيازر ومن تحتها سفرة آدم فاضلة عليها... فإذا وضعت رفعت المكبة والأغشية، وأخذ القوم فى الأكل، وأبو الحسن ابن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم، فلا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين، ثم ينهضون إلى مجالس فى جانب المجلس الذى كانوا فيه ويغسلون أيديهم، والفراشون قيام يصبون الماء عليهم والخدم وقوف على أيديهم المناديل الديبقية". الجهشيارى: كتاب الوزراء ص240.
(2) يذكر ابن شاكر الكتبى: وفيات الأعيان جـ1 ص57، أنه "كان يقف بجانبه غلامان فالذى فى الجانب الأيمن كانت فى يده حوالى ثلاثين ملعقة فيعطى واحدة بعد الأخرى للوزير، وبعد إخراج الملعقة من فمه كان الوزير يناولها للغلام الواقف جهة اليسار".
(3) الأصطخرى: المسالك والممالك ص93.
(4) الثعالبى: لطائف المعارف ص93. ابن حوقل: صورة الأرض ص359.
(5) الثعالبى: لطائف المعارف ص246. النويرى: نهاية الأرب جـ1 ص378.
(6) الثعالبى: لطائف المعارف ص246. النويرى: نهاية الأرب جـ1 ص318.
(7) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ص40. ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص115. الثعالبى: لطائف المعارف ص184.

وكانت تقام المآدب أمام دور أمراء بنى بويه، كما حدث فى عهد عضد الدولة حيث كانت تقام أمام قصره المآدب ثلاث مرات يوميًّا فى الصباح والمغرب والعشاء[1] وأمام دار جلال الدولة من بعده خمس مرات يوميًّا، وهى أمور كانت مقصورة على الخلفاء العباسيين وحدهم[2]، ولم تطلق لولاة العهود قبل سيطرة الأمراء البويهيين على بغداد كما سبق أن ذكرنا.

وقد اهتم الكتاب بآداب الطعام، فيذكر الخطيب البغدادى أنه بعد الانتهاء من الطعام على صاحب البيت أن يبخر المدعويين وعلى المدعويين أن يشكروا صاحب الدعوة[3].

وكانت العادة السائدة فى الولائم رش ماء الورد على رءوس الضيوف[4] وإشعال أعواد البخور وتزيين المائدة بالورود والرياحين[5].

ويذكر التنوخى[6] مقدار ما كان ينفقه أحد الوزراء فى العهد البويهى وهو «أبو الطاهر محمد بن بقية» على مطبخه فى كل يوم ألف رطل من الثلج.

إلا أن ذلك لا يقارن بما كان عليه حال الوزراء العباسيين من قبل[7]. وإن قول

---

(1) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص298. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص132. ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص65.

(2) ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص65.

(3) كتب الغزالى خمسة قواعد لآداب الطعام. إحياء العلوم جـ2 ص16 ـ 18. الخطيب البغدادى: التطفيل ص86.

(4) الصابى: الوزراء ص261.

(5) الثعالبى: ثمار القلوب ص487.

(6) التنوخى: نشوار المحاضرة جـ1 ص207. كما يذكر أن الوزير أبا الفرج "كان يصرف من اللحم فى كل يوم من أيام وزارته نيفًا وستين رطلا، له ولنسائه وغلمانه وجميع ما يأخذه فى دوره ثلاثة جدى وعشر دجاجات وأربعة أو خمسة أفراخ، وثلاث زجاجات حلوى من السوق وليست من فاخرة هى زلابية دقيقة أو فالوذج أو ما يجرى مجرى ذلك" نشوار المحاضرة جـ1 ص207.

(7) قلد الوزراء العباسيون الخلفاء فى التفنن فى ألوان الطعام والإسراف فى تقديمه؛ فقد أسرف الخلفاء العباسيون فى النفقة على مطابخهم. فيذكر ابن طباطبا أن نفقة الخليفة المأمون فى اليوم ستة آلاف دينار كان جزء كبير منها ينفق على مآدب الطعام. الفخرى فى الآداب السلطانية ص207. كما أفاض المؤرخون فى ذكر مدى إسراف الخلفاء العباسيين الأول. المسعودى: مروج الذهب جـ2 ص279 ـ

أبو حيان التوحيدى: "إن الجدى إنما هو شىء من زينة المائدة.. وإنما جعل كالخاتمة أو العاقبة وعلاقة الفراغ، ولم يحضر للتمزيق، وإن أهله لو أرادوا به الأكل لقدموه قبل كل شىء". ليؤكد المستوى الاقتصادى المتواضع للناس فى المجتمع العراقى فى العهد البويهى. إذ كان غذاء الغالبية العظمى من السكان يتكون عادة من خبز الشعير وحلواهم من التمر، فقد اكتسح الغلاء والمجاعة مدنًا بأكملها حيث "فشت الأمراض الحادة، فأفنت رجالا ثم جد الغلاء، وفقد الطعام، ووقع الموت، فمن الناس من لم يطعم أسبوعًا حتى هلك جوعًا ومنهم من تبلغ بالميتة، وهو ينتظر نحبه ليلحق بصحبه"[1] ويذكر الخطيب البغدادى أن الضعفاء من أهل بغداد سنة 360هـ كانوا "يستهلكون سويق الحمص شهرين أو ثلاث عند عدم الفواكه مع كونه غير طيب"[2].

ويصف التنوخى فقر الناس وضيق أحوالهم وانعكاس ذلك على سلوكهم بقوله: "تحاربنا شدة زماننا وفقر الناس وضيق أحوالهم، واستحب لهم البخل حتى أن بعضهم يسميه احتياطًا وبعضهم إصلاحًا وتحذر التجار من معاملة الناس، ومسك الناس بأيديهم عن الإحسان إلى أحد أو بره أو إغاثة ملهوف أو التنفيس عن مكروب وأن ذلك فى الأكثر لشق أحوالهم"[3].

وكان أبو حيان التوحيدى على الرغم من مكانته العلمية واتصاله برجال الدولة يشكو

---

280. الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ10 ص52. وكان استخدام الثلج جزءا رئيسيا من الاهتمام بإعداد المآدب وقد استخدم العرب الثلج وعرفوا صناعته.

Risler: Ia Civilisation Arabe P. 160 Paris 1955.

(1) أبو حيان: البصائر والذخائر جـ3 ص469. الثعالبى: يتيمة الدهر جـ1 ص74.

(2) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ1 ص119. أبو حيان التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة جـ3 ص63. وكانت أكثر مدن العراق عرضة لتلك الموجات من القحط والجوع بسبب الفيضانات خاصة بعد إهمال السدود وسوء السياسة الإدارية والاقتصادية وثقل الضرائب. ابن الجوزى: جـ7 ص131 ـ 176. أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ4 ص71. ابن الأثير: الكامل جـ9 ص541.

(3) التنوخى: نشوار المحاضرة جـ2 ص275.

الفقر والحرمان، فى رسالة له لأحد أصدقائه أرسل يقول: "أنقذنى من لبس الفقر، أطلقنى من قيد الضر، اكفنى مئونة الغداء والعشاء"[1].

الأعياد والمواسم

كثرت الأعياد الدينية فى العراق فى عهد البويهيين، فشهدت البلاد مواسم واحتفالات اشترك فيها المسلمون وأهل الذمة من سكان العراق، كما كان لأهل السنة والشيعة فى العراق أعياد ومواسم واحتفالات خاصة بكل منهما، بل ابتدعوا بعض المواسم التى تعبر عن معتقداتهم والتى تخلد ذكرى أئمتهم، وكان ذلك حافزًا لأن يبتدع خصومهم مواسم لنفس الغرض[2].

ولما كان الأمراء البويهيون يناصرون الشيعة[3]، فقد أسرف هؤلاء فى مظاهر احتفالاتهم وأعيادهم، وكثيرًا ما نشبت بينهم وبين أهل السنة الفتن والمنازعات أثناء الاحتفال بتلك المواسم مما كان سببًا فى اضطراب الأمن فى البلاد[4].

أما العيدان اللذان كان لهما النصيب الأكبر فى مظاهر الاحتفال عند المسلمين فهما عيد الفطر وعيد الأضحى، خاصة فى بغداد[5]، حيث تسطع الأنوار فى أرجائها ليالى العيدين، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات، وتسطع من جوانبها القناديل، وتتلألأ الأنوار من قصور الأمراء، وقد لبس الناس القباء السود تشبهًا بالخلفاء العباسيين، وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مبطنة بالسواد ويلبسون دراعات كتبت عليها "!Ng 6 ˇ ¡ø

---

(1) رسائل الهمذانى: جـ3 ص227.
(2) هلال الصابى: ذيل تجارب الأمم ص339.
(3) المصدر السابق: ص418.
(4) Muir. The Caliphate P. 579.
(5) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ3 ص117. كما يذكر الأصفهانى فى كتاب الأغانى جـ3 ص62 أن أهل البصرة كانوا يسمنون الأضاحى مدة سنة أو أكثر قبل عيد الأضحى حيث كان يباع الواحد منها بعشرة دنانير.

r ¸J¡ ¸qld[1]. وكانت الدبادب والطبول تدق للأمراء البويهيين أوقات الصلوات وفى الأعياد منذ عهد عضد الدولة[2]. وجرت العادة أن يهنئ الناس بعضهم بعضًا ويتزاورون فى أيام الأعياد[3]، وكانت مظاهر الاحتفال بعيد الفطر تبدأ فى العشر الأخيرة من شهر رمضان، حيث كان الأغنياء يبعثون بالكسوة ويخرجون الصدقات[4].

وكان لهذين العيدين روعة وبهجة تتجلى فى قصائد الشعراء من ذلك ما كتبه «أبو إسحق الصابى» مهنئًا الأمير البويهى «عصام الدولة» بعيد الأضحى[5]:

أسعد بفطر مضى وأضحى ... وأفاك باليمن والنجاح

وانحر أعادى بنى بويه ... السيف فى جملة الأضاحى

فالكل منهم ذوو قرون ... يصلح للذبح والنطاح

كما كان العراقيون يحتفلون على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم بالنيروز[6]، وهو عيد رأس السنة الفارسية. وجرت العادة فى الاحتفال بعيد النيروز أن يتبادل الناس الهدايا ويرش بعضهم بعضا بالماء[7].

وبعد عيد النيروز يحتفل أهل العراق بعيد «المهرجان» ويتبادلون فيه الهدايا ويتميز

---

(1) سورة البقرة آية 137.

(2) هلال بن الصابى: رسوم دار الخلافة ص131.

(3) رسائل الصابى ص48 ـ 50.

(4) أبو حيان التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة جـ3 ص5.

(5) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص255.

(6) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص248، 407. وهو من الأعياد الفارسية القديمة، وهو أول أيام السنة فى تقويمهم ويذكر البيرونى أن أصل النيروز يرجع إلى أن سليمان بن داود حين رد إليه خاتمه وملكه بعد فقدانهم أربعين يومًا قالت الفرس: "نوروز آمز" أى جاء اليوم الجديد فسمى هذا اليوم النيروز. وكان الفرس يتهادون فيه كما اعتادوا الاغتسال بالماء وأن يرشوا بعضهم بعضًا فى ذلك اليوم تبركا ودفعا للأمراض. الآثار الباقية ص216 ـ 217.

Ency. (Art Nawruz) Vol. 3. P. 949 –950.

(7) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ3 ص144. القلقشندى: صبح الأعشى جـ2 ص42.

المهرجان بأن الرعية تهدى فيه إلى الحكام[1] كلٌّ على قدر طاقته، فقد أهدى أبو إسحاق الصابى إلى عضد الدولة (ت 372هـ /977م) فى يوم المهرجان "اسطرلابا[2] بقدر الدرهم محكم الصنعة"، وكتب إليه رسالة جاء فيها[3]:

أهدى إليك بنو الحاجات واختلفوا فـى مهرجـان عظـيم أنـت مبليـه
لكـن عبـدك إبـراهيم حـين رأى علـو قـدرك لا شـىء يـساميه
لم يرض بالأرض يهديها إليك فقد أهـدى لـك الملـك بمـا فيـه

كما أرسل مسكويه (ت 421هـ) إلى عميد الملك قصيدة هنأه فيها باتفاق عيد الأضحى والمهرجان فى يوم واحد قال فيها[4]:

قـل للعميـد عميـد الملـك والأدب اسعد بعيديك عيد الفرس والعرب

وكان القواد ورجال الدولة يوم المهرجان يخلع عليهم الأمراء ملابس الشتاء، ويجدد العامة فيه الأثاث والملابس[5].

أما يوم عاشوراء ـ وهو العاشر من شهر المحرم ـ فكان يعتبر يوم حزن عام عند الشيعة، حيث يغلق الناس حوانيتهم، ويكثر العويل والبكاء وتخرج النساء كاشفات الشعور، مسودات الوجوه وقد شققن ثيابهن ويلطمن خدودهم حزنًا على ذكرى مقتل

---

(1) كتب أبو اسحاق الصابى وهو فى الحبس هدية قصيدة إلى الأمير البويهى عضد الدولة بمناسبة عيد المهرجان قال فيها:

أتتك الهدايا فيـه بـين موفـر عـلى قـدر المهـدى وبين زهيد
فكان احتفالى فى الهدية درهـما يطير مع الأنفاس يـوم ركـود
وجزءًا لطيفًا ذرعه ذرع محبس وتقييده بالشكل مثـل قيـودى

الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص58.

(2) آلة لرصد النجوم والكواكب ليلا ونهارا. حاجى خليفة: كشف الظنون جـ1 ص136.

(3) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص116. ياقوت: معجم الأدباء جـ2 ص34.

(4) ياقوت: معجم الأدباء جـ5 ص8. ويذكر مسكويه أنه قد تبلغ قيمة هدايا النيروز والمهرجان خمسة وثلاثين ألف دينار. تجارب الأمم جـ1 ص155 ـ 156.

(5) المسعودى: مروج الذهب جـ3 ص404.

الحسين بن على يوم كربلاء[1]. وغالبًا ما اشتدت الفتن بين أهل السنة والشيعة فى هذا العيد لكثرة ما ابتدعه الشيعة من بدع تحرمها الشريعة الإسلامية، فتحدث الفوضى ويعم الاضطراب وتنهب الأموال[2]، لهذا كان يصدر الأمر فى بعض الأحيان يمنع الشيعة من النوح وعمل المآتم مخافة الفتن[3].

كما أمر معز الدولة أن يحتفل الناس بعيد «الغدير»[4] سنة 352هـ وهو عيد "غدير خم"، وهو اليوم الذى يعتقد فيه الشيعة أن الرسول e عهد فيه إلى على بن أبى طالب واستخلفه "فنصبوا القباب وعلقوا الثياب، وأظهروا الزينة وفى ليلته أشعلت النيران بمجلس الشرطة، وضربت الدبادب والبوقات، وفى صبيحته نحروا جملا"[5].

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كانت تسببه هذه الاحتفالات الشيعية من إثارة أهل السنة فى العراق واندلاع الفتن بينهم[6] وبين الشيعة.

كما كان أهل العراق يحتفلون بشهر رمضان؛ بإحياء لياليه بتلاوة القرآن الكريم فى المنازل، وكان الأغنياء يقومون بإطعام الفقراء، فكان يفطر عند «الصاحب ابن عباد» [7]فى كل ليلة عدد كبير من الفقهاء وكانت صدقته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يخرج منه فى جميع شهور السنة.

كما شارك المسلمون النصارى احتفالاتهم الدينية فى المظهر الاجتماعى لها، ففى يوم

---

(1) ابن الجوزى: المنتظم جـ7 ص15. ابن الأثير: الكامل جـ8 ص435. جـ9 ص110. ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص290. ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص243. السيوطى: تاريخ الخلفاء جـ4 ص57. ابن العماد: شذرات الذهب جـ3 ص28.

(2) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص290. ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص243. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص272.

(3) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ4 ص239،260.

(4) ابن الأثير: الكامل جـ8 ص407.

(5) الجهشيارى: كتاب الوزراء ص371. ابن الأثير: الكامل جـ8 ص407.

(6) ابن الأثير: الكامل ص225 ، 226.

(7) أبو حيان التوحيدى: الإمتاع جـ3 ص5. الثعالبى: يتيمة الدهر جـ3 ص36.

عيد الفصح[1] ببغداد كان المسلمون والنصارى يقصدون دير "سمالو" فى شرقى بغداد بباب الشماسية على نهر المهدى حيث يجتمع أهل الطرب والموسيقى[2].

كما احتفل أهل العراق بالجانب الاجتماعى المتمثل فى مظاهر اللهو والسرور بعيد القديسة أشمونى الذى كان يحتفل به فى دير أشمونى غربى دجلة احتفالاً كبيرًا، حيث كان يجتمع أهل الغناء واللهو، وتضرب لهم الخيام ويتنافس الناس فى إظهار الزينة، وكان الناس يأتون إلى بغداد لحضور الاحتفال بهذا العيد الذى كان أحد المظاهر الاجتماعية الخاصة ببغداد[3].

كما كانت أهم الأعياد فى أيام الآحاد الأربعة من الصوم الكبير يتم الاحتفال بها فى الأديرة، فكان يحتفل فى الأحد الأول فى دير «العاصية»[4] وفى الأحد الثانى فى دير «الزربفية» وفى الأحد الثالث فى دير« الزندورد» والأحد الرابع فى دير «درمالس»[5]. حيث يأتى المسلمون لمشاهدة الشمامسة والرهبان والراهبات، والتمتع بسماع الغناء والجلوس فى المتنزهات خاصة عند دير درمالس حيث كان «عيده أحسن عيد» [6]وكان يكثر فيه الغناء والموسيقى، والبيع والشراء مما يشجع الزوار على الإقامة حول الدير فى خيام نُصبت خصيصًا لذلك لعدة أيام[7].

كما يسبق الصوم الكبير عند النصارى ما يسمى بصوم العذراء، ومدته ثلاثة أيام فإذا

---

(1) وهو عيد للنصارى يوم الفطر من صومهم الكبير. القلقشندى: صبح الأعشى جـ2 ص415.

(2) جاء فى كتاب الديارات للشابشتى أن أحد الشعراء أنشد واصفًا مدى ما كان من لهو فى هذا العيد بقوله:

حتى حسبت لنا البساط سفينة والدير ترقص حولنـا حيطانـه

(3) البيرونى: الآثار الباقية ص310. وأشمونى اسم امرأة بنى الدير على اسمها ودفنت فيه. الشابشتى: الديارات ص30.

(4) الشابشتى: الديارات ص60 ـ61، ياقوت: معجم البلدان جـ4 ص117 ـ 156.

(5) يقع هذا الدير فى باب الشماسية ببغداد قرب الدار المعزية وبه منتزه كثير الأشجار والبساتين. ياقوت: معجم البلدان جـ4 ص138.

(6) الشابشتى: الديارات ص3.

(7) الشابشتى: الديارات ص3 ـ 5.

إنقضى الصوم اجتمعوا فى دير العذارى[1] للعبادة وتقديم القرابين، وكان المسلمون من أهل العراق يجيئون للتنزه عند هذا الدير بين البساتين وحدائق الكروم[2].

وفى آخر سبت من أيلول من كل عام كان يقام عند دير الثعالب ـ وهو دير ببغداد ـ بالجانب الغربى منها على ميلين من الموضع المعروف بباب الحديد، وكان لا يتخلف عن الاحتفال بهذا العيد أحد من النصارى أو المسلمين؛ "لأنه فى أعمر موضع وأنزهه حيث البساتين والنخيل والرياض، ولتوسطه بغداد، فلا يكاد يخلو من قاص وطارق". إذ كان مكانًا للطرب والنزهة، مزدحمًا بالزائرين، كما كان يجاور دير «الجرجوث» ويكونان معًا بقعة واحدة من أجمل المواقع فى بغداد، يؤمه المتنزهون خاصة أيام الأعياد.

وشارك المسلمون النصارى أيضًا الاحتفال بليلة الوقود وهى ليلة عيد الميلاد، وصار من التقاليد مشاركة المسيحيين فى إبقاء النيران وتأجيجها وإرسال الوحوش فيها وتطير الطيور فى لهبها، والتلهى حولها.

وكذلك احتفل أهل الضياع فى كل عام بعيد «دير الخنافس» إذ "فيه طلسم ظريف وهو أنه فى كل سنة ثلاثة أيام تسود حيطانه وسقوفه من الخنافس الصغار اللواتى كالنمل، فإذا انقضت تلك الأيام لا يوجد فى تلك الأرض من تلك الخنافس واحدة البتة، فإذا علم الرهبان بمجيء تلك الأيام الثلاثة أخرجوا جميع ما لهم فيه من فرش وطعام وأثاث وغير ذلك هربًا من الخنافس، فإذا انقضت عادوا"[3].

وكان عامة الناس كثيرًا ما يتحدثون عن هذه الظاهرة ويتندرون بها.

ومن الثابت أن المسلمين تركوا للنصارى حرية الاحتفال بأعيادهم الدينية، بل اشتركوا معهم فى الجانب الاجتماعى المسلى فى تلك الأعياد.

---

(1) يقع دير العذارى على مقربة من بغداد على شاطئ دجلة وسمى بذلك لأنه كان به جوار عذارى قد ترهبن فيه للعبادة. ياقوت: معجم البلدان جـ4 ص156.

(2) الشباشتى: الديارات 69 ـ 70 .

(3) المصدر السابق.

الموسيقى والغناء والمجالس الاجتماعية

استمر اهتمام الأمراء والوزراء وعلية القوم بمجالس الغناء والطرب التى ازدهرت فى العراق طوال العصر العباسى[1]. وقد شهدت قصور الأمراء البويهيين الاهتمام بمجالس الغناء والطرب، فقد كان الأمير البويهى معز الدولة يقضى وقتًا طويلا مع الموسيقيين، كذلك كان عضد الدولة من المهتمين بالموسيقى، كما ظهر فى عهد البويهيين أفذاذ الموسيقيين الذين صنفوا الكتب فى الموسيقى والغناء[2]. ويعزى إلى «أبى نصر محمد بن طرخان الفارابى» (المتوفى سنة 339هـ) الفيلسوف التركى الذى "أتقن ببغداد الموسيقى وهو أول من ركب آلة "القانون" ذلك التركيب الذى اشتهرت به[3]". وشمل الوزير «فخر الملك» وزير الأمير البويهى «بهاء الدولة» (ت 403هـ) برعايته "المغربى" جامع

---

(1) أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس وعلى الرغم من ضعف نفوذ الخلفاء فى العصر العباسى الثانى، فإنهم كانوا يعقدون مجالس للطرب والغناء يحضرها الشعراء والأدباء والمغنون والموسيقيون. المسعودى: مروج الذهب جـ8 ص202 ـ 206. كما يذكر أن الخليفة المعتمد كان شغوفًا بالطرب والغناء والموسيقى. سأله عبد الله بن خرداذبة والد أبى القاسم عبيد الجغرافى الشهير عن نشأة الموسيقى والغناء وما طرأ عليهما من تغير فأجاد فى وصفهما ثم سأله عن الصفات التى يجب أن تتوافر فى المغنى وسأله عن أنواع الطرب فقال: "على ثلاثة أوجه يا أمير المؤمنين هو طرب محرك مستخف الأريحية، ينعش النفس ودواعى الشيم عند السماع، وطرب شجن وحزن، ولا سيما إذا كان الشعر فى وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمراثى لمن عدم من الأحباب، وطرب يكون فى صفاء النفس ولطافة الحس لاسيما عند سماع جودة التأليف وإحكام الصنعة، إذا كان من لا يعرفه ولا يفهمه ولا يسره، بل نراه متشاغلا عنه فذلك كالحجر الجلد، والجماد الصلد سواء وجوده وعدمه. وقد قال يا أمير المؤمنين جمهور من الفلاسفة المتقدمين وكثير من حكام اليونانين، من عرضت له آفة فى حاسة الشم كره رائحة الطيب ومن غلظ جسمه كره سماع الغناء فتشاغل عنه وعابه وذمه. قال المعتمد، فما منزلة العروض من الشعر. وقد أوضحوا الإيقاع وأنواع الطروق وفنون النعم؟ قال لقد قال فى ذلك يا أمير المؤمنين من تقدم: إن منزلة الإيقاع من الغناء منزلة العروض من الشعر وقد أوضحوا الإيقاع ووسموه بسمات ولقبوه بألقاب وهو أربعة أجناس..". المسعودى: مروج الذهب جـ8 ص95 ـ 99.

(2) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص284، 292.

(3) ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول ص295، ابن العماد: شذرات الذهب جـ2 ص350.

الأغانى[1] وذلك حبًّا فى الغناء وشغفًا بالموسيقى. ويرجع انتشار الغناء فى ذلك العصر إلى كثرة الجوارى؛ إذ كان معظم القيان اللاتى احترفن الغناء فى أوائل القرن الرابع الهجرى من الجوارى وقليل منهن من الحرائر، وكانت الجوارى تغنين من وراء ستار، أما إذا أقيم حفل خاص وأرادوا إكرام الضيف غنت المغنيات أمام الستار[2]. وقد وصل الغناء على أيدى الجوارى فى ذلك العصر حدًا بعيدًا من التقدم[3]، وانتشر فى المحال العامة والندوات الخاصة وفى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وفى بيوت الأغنياء ودور الفقراء، وكانت للجوارى المغنيات بيوتًا معدة للسماع فى الأحياء المختلفة، وكان الأغنياء يتخذون فى بيوتهم أماكن واسعة توضع فيها الأرائك فيجلسون عليها ليلا لسماع الغناء.

كما انتعشت الموسيقى انتعاشًا كبيرًا، وكان لظهور أنواع الشعر من القصائد والموشحات أثر على تقدم الغناء. وقد وضعت القواعد والآداب لحضور المجالس[4] الخاصة بالشعر والغناء والموسيقى التى كانت تُعقد فى بيوت الأمراء والوزراء.

كما نقشت أبيات الشعر[5] على أوانى الذهب والفضة، وتفننوا فى نقشها على آلات الطرب[6].

---

(1) المسعودى: مروج الذهب جـ8 ص100 ـ 102.

(2) الحفنى: إسحاق الموصلى ص57 كانت آلات الغناء هى العودة والطنبور والمزمار والجنك. المسعودى: مروج الذهب جـ8 ص100. ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ3 ص241.

(3) يذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى جـ5 ص171، 241: أن العرب عرفوا أنواعًا كثيرة من الغناء منها النصب وهو غناء الركبان، والسناد وهو الثقيل، والهزج وهو الخفيف، والغناء المنفرد والغناء المصحوب بالرقص؛ وقد ارتبطت الموسيقى على أيدى المسلمين بعلم الرياضيات مما يبين توصلهم إلى النوتة الموسيقية أو الميزان الموسيقى.

(4) وصف الصاحب بن عباد أحد هذه المجالس بقوله: "نحن يا سيدى فى مجلس غنى إلا عنك شاكر إلا منك، قد تفتحت فيه عيون النرجس، وتوردت فيه خدود البنفسج وفاحت مجامر الأترج، ونطقت ألسنة العيدان، وقام خطباء الأوتار، واهتزت رياح الأقداح، وامتدت سماء اليد". الثعالبى: يتيمة الدهر جـ3 ص80،81.

(5) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص301.

(6) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص301 ، 302. =

وقد ضمنت مجالس الغناء والموسيقى التى أقامها الأمراء والوزراء كثيرًا من الندماء، وكان على النديم أن يكون أديبًا ملمًا بعلوم الطب والفلك، والنجوم والطرد والقنص ولعب الصوالج، والموسيقى والغناء، بجانب ألوان الشمائل الخلقية، "يوفق بينها بحسن الاستعداد والمرونة فيكون له مع عزة الملوك تواضع العبيد. ومع وقار الشيوخ مزاح الأحداث ثم هو محتاج أن يجتمع له من قوة الخاطر ما يفهم به ضمير الذى ينادمه على حسن ما يبلوه من خلائقه، وما يتعلمه من إشارته"[1].

وقد اشتهرت مجالس الوزير «أبى الفضل بن العميد» بكثرة الندماء وآلات الموسيقى والمغنين[2].

كما كان يجتمع فى مجالس الوزير «أبى محمد المهلبى» (ت 352هـ) وزير معز الدولة البويهى الندماءُ وأهل الأدب والفضل، وقد فرشت هذه المجالس بالورد والرياحين، وكان يتوسط المجلس بركة ماء "لها فوارات عجيبة يطرح الورد فى مائها فتنفضه على المجلس فيقع على رءوس الجالسين"[3].

= وقد وجد مكتوبا على طنبور جارية:

بكيت من طرب عند السماع كما ... يبكى أخو قصص من حسن تذكير

كما كتب على عود أهداه أحد الأدباء إلى مغنية:

من ذا يبلغ نخلة عن عبدها ... إنى إليك وإن بعدت قريب

تستنطقين بحسن صوتك أعجما ... يدعو بذاك صوابه فيجيب

(1) الحفنى: إسحاق الموصلى ص154 ـ 155. وكان فى مقدمة ما يلتزم به النديم فى مجالس الملوك والأمراء والوزراء (أن يجلس فى مرتبته جاثيا على ركبته، لا يظهر شيئا من قدمه، مع حسن أدب وسكون فلا يعبث بثوب ولا خاتم ولا لحية، وعليه كلما نهض الرئيس أن ينهض لنهوضه، ويجلس لجلوسه ولا يدنو إلا إذا استدناه، ولا يبتدئه بكلام ولا يستعيده منه، ولا يجلس حتى يأذن له، وينبغى أن يكون ذهنه وإصغاؤه ومجامع قلبه كلها مع الرئيس.. وليس له بحال من الأحوال أن يستحث الشراب أو يقترح صوتا على مغن أو مغنية".

ويذكر المسعودى أن كاتبا فاخر نديما فقال له النديم "أنا قرين وأنت تابع وأنا سميت نديما للندم على مفارقتى". مروج الذهب جـ8 ص108.

(2) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص301 ، 302.

(3) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص205 ـ 206.

وقد وصف الصاحب بن عباد فى رسالة إلى الوزير «أبى الفضل بن العميد» مجلس الوزير المهلبى حيث أخذت المغنيات فى الغناء فيقول: "قد حضرنا حجرة تعرف بحجرة الريحان فيها حوض مستدير ينصب إليه الماء من دجلة بالدواب"[1].

وإلى جانب مجالس الطرب والموسيقى كانت هناك المجالس الاجتماعية التى كانت تعقد فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء، حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة، وتروى لنا كتب الأدب والتاريخ الكثير عن هذه المجالس فقد كان عضد الدولة البويهى "يتفرغ للأدب ويتشاغل بالكتب ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء"[2].

كما شجع الأمراءُ البويهيون العلماء والفلاسفة وأحاطوهم بعنايتهم ومن بينهم «إخوان الصفا»[3] وهم من أشهر فلاسفة عصرهم، وكانوا من الشيعة المتطرفين وحاولوا الربط

---

(1) يذكر الثعالبى أن المغنية حُسن العكبراوية غنت فقالت:

سلام أيها الملك اليمانى لقد غلب البعاد على التدانى

فطرب الوزير المهلبى واستعادها الغناء فقالت:

تطوى المنازل على حبيبك دائما وتظل تبكيه بدمع ساجم

ثم تبعتها جارية ابن مقلة فغنت من أشعار ابن عباد:

يا من لـه رتـب ممـ كنـة القواعـد فى الفـؤاد

فكانت المغنيات تتبادلن الغناء وتتبارين فى جودة الأداء ورقة الأشعار.

الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص309 ، 310 وقد وصف الصاحب بن عباد مجلس الوزير المهلبى وما دار فيه من غناء وموسيقى بقوله:

وأوسعنى أسا ووردًا ونرجسًا وأحضرنى نايا وطبلا ومزهرًا

الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص208.

(2) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص208.

(3) قامت هذه الجماعة بكتابة إحدى وخمسين رسالة وكان شعارهم أن يكون الواحد منهم مخلصًا حتى الموت وتبدأ فلسفتهم بالنظر فى الرياضيات ثم تنتقل على المنطق والطبيعيات وتنتهى إلى معرفة الله على نمط الصوفية. وقد تأثرت طوائف الإسماعيلية كالدرزية والنزاية بآرائهم وكان من أشهرهم أبو سليمان محمد بن نصر، وأبو الحسن على بن هارون، وأبو أحمد المرجانى، وزيد بن رفاعة، وابن سيناء الطبيب المشهور الذى توفى سنة 428هـ.

رسائل إخوان الصفا جـ2 ص119،

Brown. A literary History of Persia. Vol 1, P. 291 - 292.

بين العلم والدين، وقد تأثروا بالثقافة اليونانية وحاولوا التوفيق بينها وبين الشريعة الإسلامية.

كما تميزت مجالس الوزير المهلبى بكثرة ما قيل فيها من الشعر والقصص الأدبى كان ثمارها كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (ت 356هـ)، كما جرت فيها المناظرات التى لم تكن تخلو من النوادر الطريفة[1].

ويذكر الثعالبى أنه كان يحضر مجلس هذا الوزير مقلد أو ممثل يسمى «أبو الورد» كان "من عجائب الدنيا فى المطايبة والمحاكاة وكان يختم مجلس الوزير المهلبى ويحكى شمائل الناس وألسنتهم فيؤديها كما هى فيعجب الناظر والسامع ويضحك الثكلان"[2].

فكانت مجالس الوزير المهلبى تضم الشعراء والمغنين والموسيقيين وأهل الأدب، ولا تخلو من طابع الفكاهة، فوجد بها المقلدون ليشيعوا بالمجلس جوا من المرح والانشراح.

هذا عدا مجالس العلماء. نخص بالذكر منها مجلس «أبى سليمان المنطقى» وهو من أوسع علماء بغداد نظرًا وأعمقهم فكرًا و«ابن أبى عامر» وغيرهما، حيث كان الناس يترددون إلى مجالسهم ينهلون منها العلم والأدب، وقد نقل إلينا «أبو حيان التوحيدى»[3] الموضوعات التى كان يبحثها العلماء فى مجالسهم فذكر أنه كان يعقد فى بيت أبى سليمان المنطقى مجلس يبحث فيه كل يوم مسألة، تارة لغوية، وتارة أدبية، وكثيرًا ما تكون فلسفية.

وفى المجالس التى كانت تعقد لدى الأمراء كان العلماء يمنحون "الخلع المباركة والتشريف الميمون"[4].

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ4 ص17 ، 18.
(2) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص348.
(3) أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة جـ3 ص65.
(4) أبو حيان: الإمتاع جـ3 ص65.

وسائل الترفيه

تعددت وسائل الترفيه فى عهد البويهيين، وتنوعت وسائل التسلية، فمارسوا الألعاب المسلية، فانتشرت لعبة «الشطرنج»[1] التى عرفها المسلمون منذ عهد الرشيد، ثم أخذت فى الانتشار، وأخذ الناس يتلهون بها داخل منازلهم، وكانت أدواتها تصنع بدقة بالغة، وكانوا يلعبون بها على قطعة مربعة حمراء من الجلد[2]، ويعتبر «أبو بكر محمد يحيى الصولى الكاتب» "أوحد عصره فى لعب الشطرنج". حتى اعتقد البعض خطأ أنه واضع أساس هذه اللعبة[3]. وقد ضرب به المثل فيقولون لمن يتقن اللعب "فلان يلعب الشطرنج مثل الصولى"[4]. وكانت هذه اللعبة تلعب فى حضرة الخلفاء، فيروى أن الصولى غلب «أبا الحسن الماوردى» فى حضرة الخليفة «المكتفى»[5]. ولم يقتصر لعب الشطرنج على الرجال بل لعبته النساء على سبيل التسلية[6].

كما عرف الناس لعبة "النرد"[7] كلعبة مألوفة من الألعاب المنزلية وتسمى أيضًا الكعاب، وقد قامر الناس فى لعبها، وشغفوا بذلك رغم تحريم الإسلام للميسر[8].

---

(1) القلقشندى: صبح الأعشى جـ2 ص141 ـ 143. اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى جـ1 ص101. ياقوت: معجم الأدباء جـ2 ص129. ابن العماد: شذرات الذهب جـ2 ص340 ـ 342.

(2) يذكر المسعودى: مروج الذهب جـ2 ص521 ، 522: أنه كانت هناك ست صور لرقعة الشطرنج ظهر منها فى عهد الراضى الجوارحية نسبة إلى جوارح الإنسان، وتتألف رقعتها من سبعة أبيات فى ثمانية، وأمثلتها اثنا عشر فى كل جهة منها ستة تسمى باسم أحد حواس الإنسان كالسمع والبصر.

(3) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ1 ص280. ابن العماد: شذرات الذهب جـ2 ص240.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ3 ص480.

(5) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ3 ص477.

(6) ابن الساعى: نساء الخلفاء ص58.

(7) تسمى بالفارسية "نردشير" أى أكبر نرد وهى عبارة عن رقعة مقسمة مثل الشطرنج وهى من ألعاب الفرس. ياقوت: معجم الأدباء جـ2 ص129. ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ3 ص477.
Hitti: History of the Arabs 339.

(8) يذكر الشريف الرضى أن أحد العلويين كان "يقامر بما يتحصل له من حرفة يعانيها ويترك أطفاله محتاجين". ديوان الشريف الرضى ص3.

وكان سباق الخيل الذى أقيمت له الميادين، يُعدُّ من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة فى هذا العهد، وشغف أهل بغداد بهذه الرياضة حيث كان السباق يقام فى الميدان السبكتكينى فى بغداد[1].

كما اهتم الأمراء البويهيون برياضة المصارعة ويذكر ابن الجوزى أن الأمير "معز الدولة لما جاء إلى بغداد اشتهى رؤية الصراع، فكان يعمل بحضرته حلقة فى ميدان فتقام شجرة، وتعمل عليها ثياب الديباج والمروى ونحوهما، وتوضع تحتها أكياس فيها دراهم، ويقف على سور الميدان أصحاب الطبول والزمور، وعلى الباب أصحاب الدبادب، ثم يؤذن للعامة فى دخول الميدان فمن غلب أخذ الثياب والشجرة والدراهم، ثم دخل فى ذلك أحداث بغداد، حتى صار بكل موضع صراع فإذا برع أحدهم صارع بحضرة معز الدولة، فإن غلب أجريت عليه الجرايات، فكم من عين ذهبت بلطمة، وكم من رجل اندقت"[2]. فقد كان الديلم شعبًا جبليًا محبًّا للرياضة فاهتموا كذلك بالسباحة "فتعلمها أهل بغداد وأجادوها وأحدثوا فيها الطرائف"[3]. كما كان الرمى بالقوس رياضة مسلية عند الخاصة والعامة، كما كانت النساء تمارسن الرمى بالسهام[4].

كما ظهرت أنواع من التسلية على يد الأتراك منها مناقرة الديوك، وتحريش الكلاب، ومناطحة الكباش[5]. ويذكر ابن مسكويه ولع بختيار بن معز الدولة بمشاهدة الألعاب بجانب شغفه بالصيد وترويض الأسود[6].

---

(1) اهتم العرب بالخيل اهتماما كبيرًا وأطلقوا عليها أسماء متعددة؛ فكان يطلق على الفرس السريع "الكميت" أو المسوم الذى يتميز بعلامة، والأجرد قصير الشعر، وقد اهتم العرب بتجويد الخيل وتحسين نسلها. القلقشندى: صبح الأعشى جـ4 ص391. كما ذكر المسعودى الشروط الواجب توافرها فى الخيل لتشترك فى السباق. مروج الذهب جـ2 ص535.

(2) ابن الجوزى: المنتظم جـ6 ص341.

(3) يذكر ابن الجوزى أن السباح كان "يسبح قائما وعلى يده كانون "موقد" فوقه حطب يشتعل تحت قدر إلى أن ينضج ثم يأكل من القدر إلى أن يصل إلى دار السلطان". المنتظم جـ6 ص341. السيوطى: تاريخ الخلفاء ص159.

(4) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص232.

(5) المسعودى: مروج الذهب جـ8 ص230 ، 239. كان عند سبكتكين التركى قائد جيوش معز الدولة كبش قوى نطاح، عرف بقوته وضراوته.

(6) ابن مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص307. أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة جـ3 ص152. ابن كثير: البداية والنهاية جـ11 ص271.

وقد ظل الصيد من أهم أنواع التسلية، حيث كان يخرج هواة الصيد إلى "البرارى[1] ويركبون الخيل ويستعملون الحراب، ومعهم جوارح من طيور الصيد كالباز والشاهين وهى صقور بيضاء، والعقاب وهى طيور مدربة تدريبًا كافيًا على صيد الوحوش والغزلان[2]. كما استخدمت كلاب الصيد المدربة فى أعمال القنص، واعتنوا بتلك الكلاب وخصوصًا العبيد لخدمتها. وكانت بقصور الأمراء بيوت للحيوانات حيث تحبس فى أقفاص، كما كان بعضهم يضعها فى مجلسه مثلما فعل عضد الدولة البويهى، حيث كان يضع بجواره أسدًا بالسلاسل[3].

كذلك عرف اللعب بالصوالجة[4] كإحدى الرياضات التى انتشرت بصورة كبيرة، وهى ضرب الكرة من على ظهور الخيل، وكان الخلفاء والأمراء يلعبون بالصوالجة فى ميادين خاصة فى قصورهم أو فى الميادين العامة كالميدان السبكتكينى فى بغداد.

كما كان التقليد والمحاكاة واللعب بالخيال[5] فنونًا تلقى قبولا واهتمامًا من الناس،

---

(1) مسكويه: تجارب الأمم جـ2 ص233.

(2) كان الاهتمام زائدًا بصيد الحيوانات المفترسة خاصة الأسود فقد كان فى قصور الخلفاء فى بغداد أماكن خاصة بها، فكانت فى قصر الخليفة المقتدر سنة 300هـ دار بها قطعان من أصناف الوحوش كان يجمع بها ما يصل إليه من كافة البلدان، وكانت الحيوانات المفترسة على مقربة من بغداد نفسها فيذكر أن الخليفة المتقى خرج إلى الشماسية بجوار بغداد لصيد السباع. الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ص53.

(3) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية.

(4) يذكر ابن قتيبة أنه "من إجادة الضرب بالصوالجة أن يضرب اللاعب الكرة خلسة ويكون ضربه مترفقا، مترسلا، وأن يتوخى الضرب للكرة تحت مخزم الدابة من قبل لبتها فى رفق، وألا يستعين بسوط، وألا يؤثر فى الأرض بالصولجان أو يكسره أو يعقر قوائم دابته، وعليه أن يحترس من إيذاء من جرى معه فى الميدان وأن يحسن الكف للدابة فى شدة جريانه، وأن يجانب الغضب. ويتحفظ من إلقاء كرة على ظهر بيت، وأن يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان لأن عرضه جعل ستين ذراعا لئلا يحال ولا يصال من جلس على حائطه". عيون الأخبار ص166 ، 167.

(5) وهى دمى أو عرائس، وقد عرفها العرب فى جاهليتهم وكانوا يطلقون عليها اسم الجوارى أو البنات، وقد استمر اللعب بالدمى فى الإسلام، وكان يوجد سوق خاص لها ببغداد. ويذكر الماوردى: الأحكام السلطانية ص218. أن اللعب بالعرائس مباح للبنات لأن القصد به إلف البنات لتربية الأولاد.

فيذكر المسعودى شهرة رجل ببغداد يدعى «ابن المغازلى» برع فى المحاكاة، فكان يقف على الطريق ويقلد الطريف من نوادر الناس، "فلا يدع حكاية أعرابى أو نجدى أو نبطى أو زنجى أو تركى إلا حكاها وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكول"[1].

كما كان الخروج إلى المتنزهات والبساتين التى انتشرت حول الأديرة القريبة من بغداد متنفسًا للسكان حيث الفواكه والأعناب والهواء الطلق يقصدونها خاصة أيام الأعياد[2].

* * *

(1) المسعودى: مروج الذهب جـ8 ص161 ، 162. الثعالبى: يتيمة الدهر جـ2 ص42.

(2) كان الناس يجتمعون عند دير العذارى الذى يقع على شاطئ دجلة على مقربة من بغداد، ودير الثعالب وهو فى الجانب الغربى من بغداد "حيث البساتين والنخيل والرياض ولتوسطه بغداد لا يكاد يخلو من قاصد وطارق إذ كان مكانا للطرب والنزهة مزدحما بالزائرين". الشابشتى: الديارات ص17 ، 18. ياقوت: معجم البلدان جـ4 ص123.

مصادر الكتاب العربية والإفرنجية

أولا: المصادر العربية

1 ـ ابن الأثير: على بن أحمد بن أبى الكرم (توفى سنة 630هـ / 1238م). الكامل فى التاريخ. مصر سنة 1274هـ.

2 ـ الأزدى: محمد بن أحمد أبو المطهر الأزدى (عاش فى القرن الرابع الهجرى) حكاية أبى القاسم البغدادى. هيدلبرج سنة 1902.

3 ـ أبو إسحاق الصابى: إبراهيم بن هلال الصابى (ت 384هـ).
رسائل الصابى والشريف الرضى. الكويت 1961م.

4 ـ الإصطخرى: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الإصطخرى المعروف بالكرخى (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) المسالك والممالك القاهرة سنة 1961م.

5 ـ الأصفهانى:أبو الفرج (ت 356هـ / 967م).
كتاب الأغانى القاهرة سنة 1927

6 ـ الأنطاكى: يحيى بن سعيد (ت 458هـ / 1066م).
صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق. بيروت ت 1909م.

7 ـ البغدادى: الحافظ أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى (ت 463هـ / 1070 ـ 1071م). تاريخ بغداد أو مدينة السلام القاهرة 1931م.

8 ـ البلاذرى: أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ / 892م).
فتوح البلدان القاهرة 1318هـ.
9 ـ البيرونى: أبو الريحان محمد بن أحمد (ت 440هـ / 1048م).
ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية. ليبزج 1879م.
10 ـ التنوخى: أبو على المحسن بن على بن محمد بن أبى الفهم (ت 384هـ / 994م).
ـ نشوار المحاضرة. القاهرة 1921م.
11 ـ التوحيدى: أبو حيان ت (400هـ / 1008م) ـ الإمتاع والمؤانسة. القاهرة 1939م.
ـ البصائر والذخائر.
12 ـ الثعالبى: أبو منصور عبد الملك (ت 429هـ / 1037م.
ـ يتيمة الدهر. 1934م ـ ثمار القلوب. بيروت 1968م.
لطائف المعارف بيروت سنة 1968م.
13 ـ الجاحظ: أبو عثمان بن عمرو بن بحر (ت 255هـ / 868م).
ـ كتاب التاج. القاهرة 1924م.
ـ كتاب البيان والتبيين. القاهرة 1928م.
ـ رسائل الجاحظ. القاهرة 1344هـ.
14 ـ ابن جبير: أبو الحسن محمد (ت 614هـ / 1217م).
رحلة بن جبير. ليدن 1852م.
15 ـ ابن الجوزى: أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على (ت 597هـ)
ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم القاهرة 1357هـ.
16 ـ الجهشيارى: أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت 331هـ / 942م).
ـ كتاب الوزراء والكتاب. القاهرة 1938م.
17 ـ حاجى خليفة: (ت 1067هـ / 1657م).
كشف الظنون عند أسامى الكتب والفنون لندن سنة 1858م.
18 ـ الحريرى: أبو محمد القاسم على بن عثمان (ت 516هـ).
ـ المقامات الحريرية. القاهرة 1300هـ.

19 ـ ابن حزم: أبو محمد على بن أحمد (ت 456هـ / 1064م).
ـ الفصل فى الملل والأهواء والنحل. القاهرة 1317هـ.
20 ـ ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى. توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى.
ـ المسالك والممالك. ليدن 1938م.
ـ صورة الأرض. ليدن 1938م.
21 ـ ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ / 1406م).
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر. بيروت 1968م.
22 ـ ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى الشافعى. (ت 681هـ / 1282م).
ـ وفيات الأعيان. مصر 1948م.
23 ـ الخوارزمى: أبو بكر محمد بن العباس (ت 373هـ / 993م).
ـ رسائل الخوارزمى.
ـ كتاب مفاتيح العلوم. القاهرة 1344هـ.
24 ـ ابن الساعى: تاج الدين أبو طالب على بن أنجب (ت 674هـ).
ـ نساء الخلفاء.
25 ـ السيوطى: عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين (ت 911هـ / 1509م)
ـ تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة القاهرة 1305هـ.
26 ـ الشابشتى: أبو الحسن على بن محمد (ت 388هـ / 988م).
الديارات. بغداد 1951م.
27 ـ أبو شجاع: محمد بن الحسين عبد الله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين الروذاوردى (ت 488هـ / 1095م).
ـ ذيل كتاب تجارب الأمم. مطبعة التمدن 1916م.
28 ـ الشريف الرضى: الشريف أبو الحسن محمد بن موسى (ت 406هـ / 1015م).
ـ ديوان الشريف الرضى ـ بيروت 1307هـ.

29 ـ الصاحب بن عباد: الصاحب إسماعيل بن عباد (ت 385هـ).
ـ رسائل الصاحب بن عباد. تحقيق د. عبد الوهاب عزام، وشوقى ضيف. القاهرة 1366هـ.
30 ـ الصولى: أبو بكر محمد بن يحيى (ت 335هـ / 946م).
ـ كتاب الأوراق. القاهرة 1934م.
ـ أخبار الراضى بالله والمتقى لله. القاهرة 1935م.
31 ـ ابن طباطبا: محمد بن على بن طباطبا. المعروف بابن الطقطقى (ت 702هـ).
ـ الفخرى فى الآداب السلطانية. القاهرة 1923م.
32 ـ الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ / 922م).
ـ تاريخ الأمم والملوك. القاهرة 1326هـ
33 ـ ابن العبرى: أبو الفرج بن هارون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى. (ت 685هـ / 1286م).
ـ تاريخ مختصر الدول. بيروت 1968م.
34 ـ ابن عبد ربه: شهاب الدين أحمد (ت 329هـ / 940م).
ـ العقد الفريد. القاهرة 1346هـ / 1928م.
35 ـ ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحى العماد الحنبلى. شذرات الذهب فى أخبار من ذهب. القاهرة 1350هـ.
36 ـ ابن العميد: الشيخ ابن العميد (ت 672هـ / 1273م) تاريخ المسلمين. ليدن 1925م
37 ـ الغزالى: الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد (ت 505هـ / 1111م).
ـ إحياء العلوم.
38 ـ أبو الفداء: إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماة (ت 732هـ / 1331م)
المختصر فى أخبار البشر. القاهرة 1325هـ.
39 ـ ابن الفقيه: أبو بكر أحمد بن محمد الهمدانى. (توفى أواخر القرن الثالث الهجرى)
مختصر تاريخ البلدان. ليدن 1885م.
40 ـ ابن قتيبة: أبو مسلم محمد بن عبد الله بن مسلم (ت 276هـ / 889م).
ـ كتاب المعارف 1348هـ.
ـ عيون الأخبار 1343هـ.

41 ـ القفطى: جمال الدين على بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب (ت 646هـ / 1248م).

إخبار العلماء بأخبار الحكماء 1903م.

42 ـ القلقشندى: أبو العباس أحمد (ت 821هـ / 1418م).

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا. القاهرة.

43 ـ الكتبى: محمد بن شاكر بن أحمد (ت 764هـ / 1362م).

ـ فوات الوفيات. القاهرة 1951م.

ـ عيون التواريخ. مخطوط بدار الكتب المصرية.

44 ـ ابن كثير: عماد الدين إسماعيل الدمشقى (ت 774هـ / 1372م).

البداية والنهاية. القاهرة 1932م.

45 ـ الكندى: أبو عمر محمد بن يوسف (ت 350هـ / 961م).

كتاب الولاة وكتاب القضاة. بيروت 1908م.

46 ـ الماوردى: أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البغدادى البصرى (ت 450هـ / 1057م).

الأحكام السلطانية. القاهرة 1298هـ.

47 ـ أبو المحاسن: جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى. (ت 874هـ / 1469م).

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. القاهرة 1923م.

48 ـ محمد جمال الدين سرور: الأستاذ الدكتور.

تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق. القاهرة 1965م.

49 ـ المسعودى: أبو الحسن على (ت 346هـ / 956م).

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر. القاهرة 1346هـ.

50 ـ مسكويه: أبو على أحمد بن محمد (ت 421هـ / 1030م.

كتاب تجار الأمم. القاهرة 1915م.

51 ـ المطهر المقدسى: مطهر بن طاهر المقدسى (ت 387هـ / 997م).

ـ البدء والتاريخ.

52 ـ المقدسى: شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعى المقدسى. (ت 387هـ / 997م).
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم. ليدن 1916م.
53 ـ المقريزى: تقى الدين أحمد بن على (ت 845هـ / 1441م).
ـ إتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا. القاهرة 1948م.
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك.
54 ـ ابن منظور: محمد بن مكرم (ت 711هـ). لسان العرب. القاهرة 1307هـ.
55 ـ ناصر خسرو: (ت 481هـ / 1088م).
سفر نامة. القاهرة 1945م.
56 ـ النويرى: أحمد بن عبد الوهاب (ت 732هـ / 1331م).
نهاية الأرب فى فنون الأدب. مخطوط بدار الكتب المصرية.
57 ـ هلال بن الصابى: (ت 448هـ / 1056م).
أبو الحسين هلال بن المحسن بن أبى اسحاق.
ـ تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء. القاهرة سنة 1958م.
ـ رسوم دار الخلافة سنة 1964م.
ـ كتاب التاريخ. نشر مرجليوث سنة 1919م.
58 ـ ابن الوردى: زين الدين عمر بن الوردى (ت 750هـ / 1349م).
تتمة المختصر فى أخبار البشر. القاهرة سنة 1285هـ.
59 ـ ياقوت الحموى: شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى.
(ت 626هـ / 1229م).
ـ معجم البلدان. بيروت 1955م.
ـ معجم الأدباء. القاهرة 1938م.
60 ـ اليعقوبى: أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 282هـ / 895م)
ـ تاريخ اليعقوبى. ليدن 1883م.
ـ كتاب البلدان. ليدن 1892م.
61 ـ أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم. (ت 292هـ / 807م).
كتاب الخراج. القاهرة 1931م.

ثانيا ـ المصادر الإفرنجية

1- Arnold: sir Thomas. W:
- The Caliphate. (oxford, 1924).
2- Browen: Harold: the Iast Buwayhids, J.R.A.S. 1929.
3- Combe. E.T.,J. Sauvaget;
- Repertoire Chronolgique d'Epigtaphie Arabe.
(Le Caire 1934).
4- Ency. Of Islam:
5- Heyd. W.
- Histoire du Commrerce du Ievant ou Moyen Age
Leopzeg, 1913.
6- Hitti: P. K.
- History of the Arabs (Iondon 1943)
7- Lane Poole: Stanley,
- Muhammaden Dynasties,
9- Muir: Wiliam Temple.
- The Caliphate its rise decline and fall.
(Beirut 1963.)
10- Noeldeke:
- Sketches From Easten History.
11- Risler: La Civilisataion Arabe, Paris 1955.

المحتويات

مقدمة	7
تمهيد	9
الباب الأول: عناصر السكان	
العرب	15
الديلم	19
الأتراك	22
الأكراد	27
الباب الثانى: طبقات السكان	
طبقة الخلفاء	31
طبقة الأمراء	35
طبقة العلماء	41
طبقة التجار	48
طبقة الصناع وأرباب الحرف	51
طبقة الفلاحين	53
فئة المعدمين، وانتشار الفوضى واضطراب الأمن	59
المرأة ودورها فى المجتمع العراقى	65
الرقيق	70
أهل الذمة	73
الباب الثالث: مظاهر الحياة الاجتماعية	
قصور الخلفاء والأمراء، ودور عامة السكان	81
الملابس	89
الطعام	93
الأعياد والمواسم	97
الموسيقى والغناء والمجالس الاجتماعية	103
وسائل الترفيه	108
* مصادر الكتاب العربية والإفرنجية	113